كتاب الدوحة

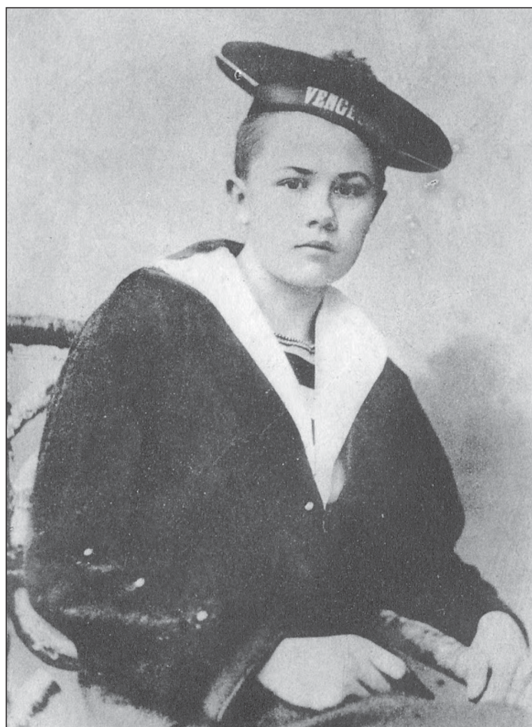
إيزابيل إيبرهاردت

ترجمة وتقديم: بوداود عمير

ياسمينة

وقصص أخرى





إيزابيـل إيبرهـاردت

ياسمينة

وقصـص أخـرى

ترجمة وتقديم: بـوداود عميّر

كتاب الدوحة 53

يوزع مجاناً مع العدد 96 من مجلة الدوحة أكتوبر 2015

إيزابيل إيبرهاردت

ياسمينة

وقصص أخرى

ترجمة وتقديم: بوداود عميّر

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

الإخراج وتصميم الغلاف: علاء الألفي - مجلة الدوحة

الفهرس



إيزابيــل إيبرهــاردت

نبذة عن حياة المؤلِّفة وأعمالها

وُلِدت إيزابيل إيبرهاردت في 17 فبراير 1877م، في فيلا «فندت، FENDT» الواقعة في حَيّ الكهوف في جنيف، المدينة السويسرية المعروفة، وهو الحَيّ الذي لا يزال إلى الآن يحمل اسمها. «إيبرهاردت، EBERHARDT»، هو الاسم العائلي لوالدة أمّها «ناتالي ديماردير، N.DE MOERDER»، وهي ألمانية من عائلة أرستقراطية، أما عن أبيها فقد تباين بخصوصه كُتّاب سيرتها: بين أن يكون مجهول الهويّة، وأن يكون «تروفيموسكي، TROPHIMOWSKY» المعروف باسم «فافا، VAVA» وهو من أصول أرمينية، كان قسّاً سابقاً للكنيسة الأرثوذكسية

الروسية، أو ربّما يكون «آرثر رامبو»«RIMBAUD» الشاعر الفرنسي المعروف(1854ـ1891م)، وهو الطرح الذي تبنَّته الكاتبة الفرنسية «فرانسواز دوبون»، «F.DEAUBONNE»، في كتابها «تاج الرمال» الصادر عام 1967م، حيث تعتقد أن أبا «إيزابيل» هو الشاعر الفرنسي الشهير، وتورد في هذا السياق جملةً من الدلائل التي تثبت اعتقادها، فهناك ـ مثلاً ـ التشابه الكبير في ملامح وجهيهما، أضف إلى ذلك أن اسم «إيزابيل» هو نفسه اسم شقيقة «رامبو»، وهي الأخت المفضَّلة لديه، وكان متعلِّقاً بها بشكل لا يوصف، وكذلك الجملة الواردة في أحد كتبها: «أنا أيضاً سأموت مسلمة مثل أبي»، إذ يقال إن «رامبو» بعد رحلة ضياعه في وادي النيل يمكن أن يكون قد اعتنق الإسلام.

وهو ما يذهب إليه ـ أيضاً ـ «بيار أرنو» واضع سيرة «الشاعر الملعون» الذي يقوم تفسيره على أن «رامبو» يكون قد اجتاز جبال الألب في سنة 1877م، وحَلَّ في سويسرا لفترة من الوقت قبل أن يلتحق بجيش ملكة هولندا، أما أمّ «إيزابيل»، الأرملة الطروب، فكانت تعيش وقتها قرب بحيرة «ليمان».

كما أجرى مقارنة بين صورتين فوتوغرافيتين لهما، بحيث تمكّن من العثور ـ بحسبه ـ على أوجه شبه كبير في هيئتَيْ «رامبو» وابنته المفترَضة، كما يشفع «ارنو» اعتقاده هذا بأن

«إيزابيل» تحمل اسم الأخت المفضَّلة لرامبو، وهو ما ذهبت إليه- أيضاً- الكاتبة الفرنسية «ف.دوبون» في كتابها «تاج الرمال»، كما أسلف الذكر.

في حين أن كل الدلائل تشير إلى أن أباها هو الروسي «ألكسندر تروفيموفسكي» الذي كان وصيّاً عليها ومعلِّمها، وقيل إنه قد تبنّاها وأعطاها اسمه، وحظيت لديه برعاية خاصّة لم يحظَ بها أولاده الشرعيون، وهو ما تذهب إليه- أيضاً- الكاتبة الفرنسية صاحبة جائزة غونكور الفرنسية «إدموند شارل رو، E.charle roux»، وهي التي كرَّست جزءاً مهمّاً من حياتها في أعمال البحث والتنقيب عن إيزابيل إيبرهاردت، وهو جهد كلَّفَها أكثر من اثنتي عشرة سنة، عملاً فكرياً، وما يعادل حجم ألف صفحة، ولم يقتصر الأمر لديها على مستوى البحث أو الأدب، بل تعدّاه إلى الجانب الفني، حيث أعدَّت سيناريو فيلم عن حياة «إيزابيل»، كان مفترضاً أن يتولّى إخراجه المخرج المعروف «محمد الأخضر حامينة»، العمل- للأسف- لم يتمّ على يد المخرج الجزائري.

وقد استطاعت «إيزابيل» أن تحتلّ مكانة متميِّزة وسط أسرتها (زوج «شارل رو» هو السياسي الفرنسي الشهير «غاستون دوفير، G.DEFFERRE» رئيس بلدية مرسيليا في الخمسينيات، ووزير داخلية فرنسا سنة1981م)، وقد صرَّحت أن المنزلة التي تتبوّأها

«إيزابيل» لدى عائلتها تشبه، تماماً، المنزلة التي تتمتّع بها «جان دارك» لدى العائلات الفرنسية، وجان دارك ـ كما هو معروف ـ هي تلك الفتاة التي وهبت حياتها قرباناً لوطنها، وقد كانت بمثابة قدّيسة، لا يزال الفرنسيون يخلِّدون ذكراها إلى الآن، وقد كان ثمرة هذا المجهود العلمي والأدبي الكبير الذي خصَّته لإيزابيل ثلاثة كتب، هي على التوالي: «رغبة الشرق» (1989م)، «رحالة كنت» (1995م)، و«إيزابيل الصحراء(2003م)»، حيث ترى أن «إيزابيل» هي، حقيقةً، ابنة «تروفيموفسكي»، وأن هذا الأخير لا يمكنه الاعتراف بها لأنه لم يكن مطلّقاً، ومن ثَمَّ لو أنه اعترف بأبوّته لها لتعرَّض لانتقام زوجته، وما سيعقب ذلك من فضائح، لا سيَّما أنه شخصية محافظة مدافعة عن سمعتها، (لا ننسى أنه كان قسّاً سابقاً في الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية).

أما الباحث «محمد رشد» والذي كان له الفضل في نفض الكثير من الغبار عن أرشيف «إيزابيل» في فرنسا؛ إذ يُعَدّ أحد الباحثين القلائل الذين أنصفوها، فإنه يشكِّك في صحّة هذا الاعتقاد: «... حسب وثيقة ميلادها، وإلى أن يثبت العكس، فهي فتاة طبيعية، أما احتمال أن يكون «تروفيموفسكي» أباً لها، فما ذلك سوى فرضية غير مؤسّسة، ذلك أن هذا الأخير كان في أثناء رحلة إلى روسيا، في فترة ولادة الطفلة، منهمكاً في تسلُّم

الفوائد من إرث زوج الأمّ، وهو جنرال روسي توفِّي عام 1873م، حيث إنه لا يمكن للزوجة الاستفادة إلا من الفوائد... أضف إلى ذلك أن «إيزابيل» لم تُشِر أبداً، في معرض كتاباتها، إلى أن «تروفيموفسكي» كان أباً لها، كانت تصفه، تارةً، بأنه عمّها الأكبر، وتارةً أخرى تصفه بالوصي، وهذا لا يمنع من أنه كان رجلاً مثقَّفاً يحمل أفكاراً عدمية... كان مسؤولاً ـ بالتأكيد ـ عن بناء الشخصية الخارقة والغريبة الأطوار لـ«إيزابيل».

هكذا، تميّزت طفولة «إيزابيل» ونشأتها بكثيرٍ من الغموض، وقد زادها التباساً تناولُ عدد هامّ من المؤلِّفين هذه الفترة الصعبة من حياتها، في محاولة منهم لاستلهام مسارها كفضاء ملائم لحَبْك خيالهم ونسج ألوان من الأساطير عبر كتبهم وأعمالهم الإبداعية، فليس غريباً أن تتضاعف أعداد الكتب التي تتناول حياتها كإنسانة ومبدعة، بمختلف لغات العالم، ولم يقتصر الأمر ـ فيما يبدو ـ على عدد من الروائيين والباحثين الذين كتبوا عنها عقب وفاتها، ولا يزالون، بل إن الأمر طالها، حتى وهي على قيد الحياة، وهو ما أثار ـ فيما يبدو ـ استياءها وغضبها، من خلال المراسلات التي كانت تحرص على بعثها إلى أصدقائها المقرَّبين أو الذين تضع كامل ثقتها فيهم، كما كانت تضطرّ، أحياناً، إلى محاولة تصويب ما كان يرد عنها في الصحف آنذاك، فها هي ترسل تصويباً إلى

جريدة فرنسية صادرة في مدينة بوردو(جنوب غربي فرنسا) في 27 أبريل 1903، بعد أن قاموا برسم شخصيتها بطريقة مغلوطة، حيث تقول: «إن مراسلكم صاغ سيرتي الشخصية بطريقة خاطئة تماماً، بحيث وجدتُ أنه لزام عليّ كتابة هذا التصويب، حتى لا يلتبس الأمر على قارئ جريدتكم. إن قصّتي الشخصية هي- دون شكّ- أقلّ روائية، وأكثر بساطة من الأسطورة التي أحيطت بها، والتي يعود إليها مراسلكم؛ لذا أنا ملزمة بكتابتها بنفسي: أنا ابنة مواطن روسي مسلم وأمّ روسية مسيحية، وُلِدت مسلمة إذاً، ولم أغيّر ديني أبداً، مات والدي بعد مولدي في جنيف، وبقينا فيها مع أمّي وأحد أقاربي، وهو عجوز كهل ربّاني كصبيّ، الأمر الذي يفسِّر ارتدائي للزيّ الرجالي... منذ سنوات بعيدة قمت بدراسات طبّية، لم ألبث أن تخلَّيت عنها، بصورة قاطعة، لصالح الكتابة.

عند بلوغي العشرين من عمري، في 1897م، أقمت مع أمّي في بونة(الاسم القديم لعنابة)، حيث تموت هي الأخرى بعد أن اعتنقت الإسلام، ولم ألبث بعدها أن عدت إلى جنيف لأكون على مقربة من قريبي العائلي المسنّ، الذي يموت، بدوره، مخلِّفاً لي ثروة بسيطة. عندها، وقد أصبحت وحيدة، عدت إلى إفريقيا، أنا المتلهّفة إلى كشف المجهول وحياة الترحال، فاجتزت وحدي، ممتطيةً فرساً، كلّاً من تونس والشرق الجزائري والصحراء

القسنطينية، كنت أزور هذه البقاع مرتدية الزيّ العربي، لطواعيّته في التنقُّل ولجماله، كما كنت أتكلَّم لغة البلاد التي تعلَّمتها سابقاً في بونة. سنة 1900م وجدت نفسي في «الوادي» في أقصى الجنوب من قسنطينة حيث تعرَّفت بالسيد «سليمان هني»، وقد تزوَّجت بحسب الأصول الإسلامية. هذه هي حقيقة حياتي، وهي حياة نفسٍ مغامِرة متحرِّرة من أنواع العبودية التي نسميها العادات والتقاليد الموروثة، ومتلهّفة إلى حياة متبدِّلة وحُرّة، تحت الشمس. لم أؤدِّ أيّ دور سياسي أبداً، ملتزمةً حدود عملي الصحافي، في دراسة، عن قرب، لحياة السكّان المحلّيّين التي أحبّها، وهي مجهولة ومشوَّهة من قِبَل الذين يدَّعون تصويرها...»

والحاصل أنها كانت شديدة الحرص على عدم الخوض في حياتها الشخصية، لا سيّما منها المراحل المضطربة من طفولتها وشبابها، وحتى وإن تدخّلت في بعض من ردودها النادرة فقد كانت تدخُّلاتها- فيما يبدو- تضفي غموضاً شديداً على شخصيّتها أكثر مما تجلي الضوء عنها، فهي تؤكِّد الشيء أحياناً، ثم تنفيه، هذا التناقض، وهذا المزاج الذي لا يعرف الاستقرار، كانا سمتين من السمات التي طبعت شخصيَّتها في بداية كتاباتها، قبل أن تتفرّغ لأدبها ورحلاتها، وتنتهي إلى فلسفة معيَّنة في الحياة أفردت لها كلّ اهتمامها وعنايتها على الصعيدين: الأدبي،

والإنساني.

على كلّ، يبقى أن «تروفيموسكي»، سواء أكان والدها أم لم يكن، قد قام بتوجيهها وتربيتها طيلة الفترة التي عاشتها في جنيف التي أقامت فيها صحبة عائلتها، إلى جانب أمّها وأبيها المفترض «فافا»، ورفقة أخوتها من أمّها: نيكول، أوغستين، ناتاليا وفولوديا. وقد تميَّز الحيّ الذي نشأت فيه، وترعرعت، بأنه كان فضاءً رحباً لمختلف الأجناس والأعراق، تتلاقح فيه الثقافات، وتلتقي فيه الأفكار من كلّ بقاع العالم، أو تكاد، فقد كانت اللغات المتداولة هي: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، وحتى العربية، وهو ما انعكس، بشكل إيجابي، على ميولها الفكرية والأدبية التي تبلوَرَت بصورة جليّة في كتاباتها ورحلاتها.

في مايو 1897م، وقد بلغت العشرين من العمر، التحقت مع أمّها بعنابة(بونة سابقاً)، وهناك، كانت تلتقي بأهالي المدينة، وتتردَّد على أوساطهم، تلتمس التعرُّف بهم، وبعاداتهم وتقاليدهم، وتحرص على تعلُّم اللغة العربية والتعرُّف إلى الدين الإسلامي. ولأنها كانت تتميَّز بسرعة البديهة، وبالموهبة، فقد استطاعت أن تقطع أشواطاً هامّة في تعلُّم اللغة العربية، ويعتقد عدد من الباحثين أنها اعتنقت وأمَّها الدين الإسلامي في عنّابة، وهي المدينة نفسها التي توفِّيت فيها أمّ «إيزابيل»، ودُفِنت في

مقبرة المسلمين هناك. وسرعان ما عادت أدراجها إلى جنيف لتسوية بعض الشؤون العائلية، ولكن الحنين راودها، من جديد، للعودة إلى الجزائر، لا سيّما بعد فقدانها لأمّها التي كانت سندها الوحيد. قرار العودة إلى الجزائر كان منعطَفاً حاسماً في حياتها بعد أن استوطنها الفراغ. أرادت أن تجسِّد تصوُّرها للحياة ونظرتها المتشائمة، في بداية المطاف، من خلال ما عاشته، في فترة صباها، في جنيف، من معاناة واضطراب، ولحظات السعادة أو الشقاء: فرار بعض أخوتها من البيت العائلي، وعلاقتها مع «فافا»، وما تعلَّمته على يديه، فقد علَّمها كيف تواجه صعوبات الحياة وتقلُّباتها، ولولا الذي تعلَّمته منه ما تمكَّنت من اختراق فيافي الصحراء، ولا عاشت حياة البساطة في الجزائر وتونس، نافضةً جميع ألوان البهرجة وأجواء الأرستقراطية التي عاشت في كنفها، فقد أوعز لها أن تتصرَّف كرجل، بل أن ترتدي ملابس رجال، ليس، فقط، في منزلها، ولكن عندما توجد بين الناس، فقد تعلَّمت أنها يمكن أن تتصرَّف بحرّيّة أكثر كلّما ارتدت ملابس الصبْية والرجال في طفولتها، كما قام بشراء حصان لها، وراح يعلِّمها كيف تمتطيه، وقد استفادت تماماً من رياضة الفروسية التي تعلَّمتها، وهي تخترق رمال الصحراء، فيما بعد، وهو الذي علَّمَها قراءة اللغة العربية الفصحى وكتابتها. والغريب أنه لم يكن

يسمح لـ«إيزابيل» بأن تتَّصل بالسويسريين الذين كانوا يعيشون فيما بينهم، كما كان يزدري، ازدراءً ملحوظاً، أبناءَ الطبقة الراقية التي كان ينتمي إليها.

ولعلّ فترة إقامتها في عنابة كانت بمثابة المنعطف الحاسم في مسيرة حياتها، فهي المدينة التي شهدت وفاة أمّها: الحادثة التي هَزَّت كيانها، وأثّرت تأثيراً عميقاً في حياتها، فقد فقدت ملاذها الوحيد ومؤنس وحشتها، وهو ما تثبته بعض المراسلات التي كانت تبعثها إلى صديقها الحميم المدعوّ «علي عبد الوهاب» في تونس. تقول في مقتطف من إحداها: «ساعدني، أخي، أنا في حاجة إليك. أرغب في الالتحاق بك وبالوسط المسلم، أشعر بوحشية الفراغ المهول الذي تسبِّبه وفاة أمّي في حياتي...»، وتضيف: «... لن أقول لك شيئاً عن حزني، ستفهمني- لا شكّ في ذلك- دون أن أتكلَّم. ها هي حياتي الإفريقية، هذا الحلم القصير، لستّة أشهر، قد أفلس وتبخَّر... الآن سوف أدع نفسي على سجيّتها تحملني إلى الهاوية، لا ينقذني سوى الصبر الإسلامي الذي كان لديّ الوقت لأكتشفه، وإلا سيكون الانتحار أو الجنون السريع...». وهكذا، تمسّكت بالخيط الذي أنقذها من السقوط السريع، وهو تعرُّفها بالعرب وبالمسلمين، بما اكتشفت فيهم من فطرة وطيبة قلب، فوقفت إلى جانبهم، برصدها لمعاناتهم

وفضحها لممارسات الاستعمار.

في 14 يونيو 1899م، التحقت بالمدعو «علي عبد الوهاب» صديقها المقيم في تونس، فكان ذلك بمثابة آخر اتّصال يجمعها مع وسطها العائلي في جنيف؛ ومن ثَمّ شرعت في تجسيد حلمها القديم بالمغامرة واكتشاف المجهول: «عندما كنت صغيرة، كنت أحلم، وأنا أحدِّق مليّاً في الطرقات، أن أكون رحّالة، وسأبقى رحّالة طيلة حياتي، عاشقة للآفاق المتغيِّرة والمواقع القصيّة التي لم تُكتَشَف بعد...»، وتستطرد في مقال آخر لها: «أنا التي لم يكفِني، أبداً، العيش الرغيد داخل المدنية الأوروبية. سأحقِّق مشروعاً جريئاً، وهو أن أرحل إلى الصحراء، وأبحث عن السلام وعن المغامرة في آن معاً: أشياء تتلاءم وغرابة طبعي...»، وأن تعمل على تحقيق حلمها، كما تقول، في الإقامة في «بلد ساحر، بلد فريد، حيث تسود السكينة، وحيث يعمّ السلام عبر القرون الرتيبة، بلد الحلم والسراب...»، وهكذا، اختارت لنفسها نمطاً معيَّناً من الحياة خاصّاً بها، إذ أصبحت تتنقّل من موقع إلى آخر، قاطعةً مسافات شاسعة من الصحراء الجزائرية: من تقرت والوادي في جنوب شرق الجزائر، إلى العين الصفراء، ثم القنادسة جنوب غرب الجزائر، مروراً بمدن وقرى وفضاءات شاسعة صادفتها، وهي تقطع هذه المسافات الطويلة المتعِبة والممتِعة في آن معاً،

مستخدمةً الفرس وسيلة تنقُّل، مرتديةً زيّ فارس عربي من أبناء الجنوب. في حين كانت السلطات الاستعمارية تنظر، بعين الريبة، إلى هذا النمط الغريب في الحياة، وكانت الطبقة المثقفة تنظر بعين الفضول والدهشة، في حين، لم يولِ السكّان والأهالي- بالمقابل- أيّ اهتمام للأمر، فقد كان السواد الأعظم من الذين التقت بهم يعاملونها بطيبة واحترام، على أساس أنها رجل طيِّب وسطهم، وهو السرّ الذي جعلها تتعلَّق بهم، وتخلص في حبّها لهم؛ ذلك أنها لم تكن تبحث، من خلال هذا السلوك، عن لفت انتباه الناس إليها، أو عن مجرَّد تغيير في الشكل، وإنما كان الأمر بمثابة تحوُّل عميق في حياتها ووجودها؛ إذ بدا بوضوح، في مسيرة حياتها اللاحقة، أنها قد أحبَّت العرب، وعرفت جيّداً ثقافتهم، واعتنقت الدين الإسلامي، وتمثَّلت العادات العربية. باختصار: كانت تكنّ لهم ولحضارتهم ولمعتَقَدهم الكثير من الإجلال والاحترام، بل كانت منبهرة بهم. شغفها بالحضارة العربية الإسلامية: أرضاً، وبشراً، وحضارةً، دفعها إلى اعتناق الإسلام والزواج من مسلم، ويتعلَّق الأمر بـ«سليمان هني» الذي تعرَّفت إليه في مدينة الوادي، وتزوَّجا سنة 1900م، وفقاً لأصول الشريعة الإسلامية، وقد أخلصت في حبّها له رغم ما تعرَّضت له من معاناة شديدة من طرف أولئك الذين ناصبوها العداء، عقب

زواجها من ذلك الجزائري المسلم الذي كانت تطلق عليه كلمة بالعربية هي «الروح».

وهكذا، بقيت إلى آخر يوم في حياتها مخلصة له، رغم ندرة لقاءاتهما، لظروف أملاها مساراهما المتباعدان؛ فهي الصحافية والرحّالة التي لا تستقرّ في مكان، وهو المنضوي تحت لواء السباهي أو السبايسية الذي كان رهن إشارة السلطات الفرنسية. ومع ذلك تصادف أن كان رفقتها في مدينة العين الصفراء قبل أن يباغتها الفيضان، قالت عنه: «... رغم حدّة البؤس الحقيقي، الآن، وحياة الانزواء مع النساء العرب، فإن ما يعذِّبني وينغِّص حياتي هو تفريقي عنه، والحزن المرير في عدم رؤيته إلا نادراً، ولبعض اللحظات الخفيّة. ها هو- إذاً- قد وُلِد بدون شعور، وبعفوية الحبّ الكبير في حياتي...».

نظرتها للحياة تبدو- للوهلة الأولى- بسيطة، ولكنها، في الواقع، عميقة المعنى، فقد كانت تشعر، وهي في مقتبل العمر، بأن الأرض موجودة، تحدوها الرغبة في اكتشاف أقاصيها: «لم أكن مهيَّأة أبداً لأن أدور في لعبة الخيول الخشبية، بكمّامات حريرية للعيون، لم أضع مثالاً لحياتي، بل مضيت طلباً للاكتشاف، أعرف، جيداً، أن طريقة الحياة هذه محفوفة بالمخاطر، غير أن لحظة الخطر هي عينها لحظة الرجاء... على أيّة حال، أنا شديدة

القناعة بأن الواحد منا لا يسقط خارج حدود نفسه، حين يتألّم قلبي أشعر بأنه موجود، كم تساءلت مرّات عديدة فوق دروب الترحال: إلى أين أمضي؟، وقد توصّلت إلى قناعة، بين هؤلاء الناس وعند البدو، بأنني كنت أرجع إلى ينابيع الحياة، وأحقِّق سفراً في أعماق الإنسانية»، وهو المنحى الذي حَقَّق- لها على الأرجح- شيئاً من السعادة بعد طول يأس وشقاء: «...دائماً في الطريق، وعبر الصحراء، أشعر بهدوء كبير يصعد إلى روحي، لا أتأسَّف على شيء، ولا أرغب في شيء، أنا سعيدة...». وعندما تزوّجَتْ - كما تقول الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار- انطلقتْ إلى الصحراء بزيّ الرجال على ظهر جوادها، لم تشعر بعدم الاحترام تجاه ذاتها، من الصعب القول لماذا اختارت إيزابيل هذا الزيّ قد يكون لأن ذلك راق لها، أو اعتمدته للدفاع عن نفسها، إن الزيّ النسائي، قياساً إلى الزيّ الرجالي، شيء مصطنع، لكن الأخير أكثر راحة، كانت مثل «جورج صاند»، ترتدي ملابس الرجال...، و«جورج صاند»، واسمها الحقيقي «آرماندين أورور لوسي دوبان»، كاتبة فرنسية غزيرة الإنتاج (1804،1876م) تزيّت بزيّ الرجال، واتَّخذت لنفسها اسم رجل، وهي من أوائل الكاتبات اللواتي تحدَّيْن المجتمع الأرستقراطي: بعاداته وتقاليده، وقِيَمه، وقوانينه، وقد كانت تصرّ على أن المرأة

ندٌّ للرجل في الحرّيّة والكتابة والإبداع، إن لم تتفوَّق عليه في كثير من المجالات، وقد عاشت على سجيّتها كما يعيش الرجال عادةً، متحدِّية العادات والتقاليد.

وهكذا، يبدو أن الأمر لم يكن بدعة في سلوك إيزابيل، إذ يمكن لنا أن نشير في سياق هذا التماثل، إلى ماري آن إيفان(1819ـ 1880م)، الأديبة والصحافية الإنكليزية التي استعارت لقب «جورج إليوت»، والأمثلة على هذا المنوال موجودة في الأدب والفكر الإنسانيَّيْن.

آلت «إيزابيل إيبرهاردت» على نفسها الدفاع عن الجزائريين وقضاياهم، في مواقفها وفي كتاباتها، من خلال أعمالها السردية التي كانت عبارة عن مزيج من التحقيق الصحافي والقصة التوثيقية، حيث كانت تحرِّر مقالاتها الصحافية بصيغة غير بعيدة عن السرد، في إطار منهج يعتمد ـ أساساً ـ على المعاينة والمعرفة الوثائقية المقرّبة، مما يوحي بأن الكاتبة انحازت، بشكل جليّ، إلى صفوف الأهالي المضطهَدين، وقد كان بوسعها أن تفضح أكثر ممارسات الاستعمار لولا ما تعرضت له من مضايقات، حيث كتبت تقول: «عليّ أن ابدأ الكتابة كمدافعة عن إخوتي، مسلمي الجزائر..آه!لو كان بمقدوري أن أقول كل ما أعرفه وكل ما يدور في خلدي...» ففي شهر أكتوبر، 1900م، وجَّهت رسالة إلى

الجنرال «ديستيزال» حاكم منطقة باتنة، آنذاك، تعلن أن هذه المرأة، أي «إيزابيل»، تكنّ كراهية شديدة لفرنسا، ولم تجد من وسيلة سوى تأليب العرب على فرنسا، وحتى تكسب المسلمين، اعتنقت الإسلام، وأصبحت مسلمة.

على الرغم من أن السياقات التاريخية، آنذاك، لم تكن مساعدة كلّها في هذا الاتّجاه، حيث تعرّضت لمضايقات شديدة من الإدارة الاستعمارية، بلغت حَدّ طردها من الجزائر تحت ذرائع واهية، وحتى السياق الأدبي، والسياق الفكري لم يكونا مواتيَيْن لهكذا كتابات ملتزمة، تتولّى فضح الممارسات الاستعمارية، فقد كانت الكتابات الأدبية في أواخر القرن الثامن عشر، من طرف الأدباء الفرنسيين المقيمين في الجزائر أو القادمين إليها، كتابات وصفية إيكزوتيكية، في الغالب، لا تتلمَّس مواضيعها معاناة شعب يتطلَّع إلى العدالة والانعتاق، ولكنها كانت تتطرّق، بشكل متعمَّد، إلى استعراض عادات وتقاليد وممارسات متخلِّفة للسكّان البدو، ومنها- على سبيل المثال- كتابات «دي موباسان»، و«أندري جيد»، وغيرهما، فليس غريباً أن تنضمّ إلى الهيئة التحريرية في جريدة «الأخبار» لصاحبها «فيكتور باريكون» بوصفها مراسلة صحافية؛ لما تميَّزَ به الخطّ الافتتاحي لهذه الصحيفة من موضوعية وصدق في معالجة قضايا الجزائريين، خلافاً للتوجُّهات

العامّة التي تميَّزت بها المنابر الصحافية الفرنسية آنذاك؛ ففي قصّة «مجرم» تصوّر معاناة الفلّاحين الجزائريين الذين قرّرت الإدارة الاستعمارية مصادرة أراضيهم ظلماً، حيث تصف وضعهم، وهم يترقّبون، على مضض، منحهم بضعة قروش لتعويض أراضي أجدادهم المغتصبة، خلال هذا الانتظار القاسي الذي لا ينتهي، ذلك أنه تَمّ استدعاؤهم يوم الثلاثاء، وهاهم في يوم الجمعة دون أن يتسلّموا شيئاً: «... كانوا يعودون عند الغروب من حيث أتوا، حزينين محبطين، يتبادلون فيما بينهم، بصوت خافت، عبارات الخضوع، وأشعة الشمس تُظهِر أسمالهم البالية، وتوشي بطريق آلامهم الطويل... في مقابل هذا الوضع المزري الذي يُرثى له كان الموظّفون في الإدارة الاستعمارية الذين تَمَّ تكليفهم بعملية تسديد حقوقهم «يتناقشون، ويضحكون، ويتحدّثون عن مغامراتهم النسائية وعن حفلات الشراب...» وعندما كان أحد الفلّاحين يقترب للسؤال عن ثمن التعويض كانوا يجيبونه، بإشارة من اليد، بعبارة ألفوا تكرارها إلى حد الابتذال: «اصبر... ليحني الفلاح رأسه ويجيب: لا حول ولا قوة إلا بالله». «عاشوري» هو واحد من الفلّاحين الذين مسّهم حيف المستعمرين، فقد نالت الفاقة منه بعد أن نفد المبلغ الممنوح له، مما اضطرّه إلى العمل أجيراً لدى المعمّر المدعو «غايار» الذي كان يملك القسم الأكبر

من الأراضي الفلّاحية، وفي اليوم الذي اندلعت فيه النيران، بفعل فاعل، في مخازن «غايار»، تجمّعت براهين عديدة ضدّ «عاشوري» الذي اقتيد إلى السجن، بذريعة محاولة انتقامه، عقب مصادرة ممتلكاته، لتختتم إيزابيل قصّتها المعنوية تهكُّماً على الأوضاع المقلوبة لـ«مجرم»، الفلاح المحطّم اعتُدِي عليه، لأن الجريمة تعني عند الضعفاء، غالباً، الإشارة الأخيرة للحرّيّة.

من السهل تصوّر ردّ فعل السياسيين العنيف للبلدية المختلطة عندما اطّلعوا على هذه القصة المنشورة في «الأخبار»، بتاريخ 08 فبراير، 1903م، بقلم «إيزابيل إيبرهاردت» والتي قد تبدو، ظاهرياً، لا قيمة لها، ولكنها ـ في الحقيقة ـ قصّة اتّهامية. عنف الردّ كان أكثر وحشية من الهجوم، رسالة ممضاة من طرف مجموعة من المعمّرين «أوتو موبيل»، نُشِرت في «الاتّحاد الجمهوري» بتاريخ 20 أبريل من السنة نفسها، حيث أُوسِعَت إيزابيل إيبرهاردت شتماً وإهانة، وهو ما أجبر «سليمان هني»، زوجها الذي تَمَّ قذفه بطريقة غير مباشرة، على أن يقدِّم استقالته، حسب ما جاء في كتاب «إيزابيل إيبرهاردت، ملاحظات وذكريات»، لصاحبه «روبير روندو»، والذي صدر عام 1945م.

كانت ـ بحسب «كاترين ستول سيمون» ـ: «تعرف كيف تفضح حماقة الاستعمار تماشياً مع الخطّ الذي سَطّره «زولا»

والذي ساندته عام 1898م، لقد «اتّهمت»، بدورها، معاملة الأسرى باللاإنسانية، وفضحت سلطات الاحتلال التي حاولت سلخ الرجال من قبيلتهم بالادّعاء أن «الحرّيّة تحت البذلة الزرقاء» والعمل على تحويلهم إلى أشخاص يتكيّفون- بصعوبة- مع حياتهم الأصلية...»، وتضيف الكاتبة الفرنسية صاحبة كتاب «سي محمود وميلاد إيزابيل إيبرهاردت»: «كانت تتّهم المهزلة البيروقراطية المؤسفة التي كانت تبرِّر نزع أراضي الفلاحين والاستيلاء على ممتلكاتهم من طرف الاستعمار، كما كانت تتّهم القادة الكبار والصغار بأحكامهم العنصرية المسبقة. فلا «موباسان» المنبهر هو- أيضاً- ببلاد المغرب، والذي سبقها بسنين قليلة فقط، ولا «أندري جيد» الذي كان ممكناً أن تلتقيه بين الجزائر(العاصمة) وبسكرة، كان لديهما تلك النظرة السياسية الثاقبة والتي تجاوزت، بشكل واسع، النوايا الأدبية.

من المؤكَّد أن معرفتها باللغة العربية الفصحى واللهجات، وزواجها مع واحد من الأهالي، إضافةً إلى اعتناقها الإسلام، كلّ هذا دفع إيزابيل، ليس إلى تحقيق طموحها من خلال أسفارها، بوصفها صحافية وأديبة فحسب، بل تعدّى ذلك إلى التعاطف مع العالم العربي. لقد عاشت تجربة منفردة في «الاندماج «مع العالم العربي والعالم الإسلامي، لكن دون التخلّي، مطلقاً، عن حرصها

الشديد على تحقيق حرّيّتها الشخصية: كانت تلك أداتها النهائية والعميقة الفعّالية في أن تقف في حياتها، كما في كتاباتها، في وجه اللاتسامح السائد، وأن تقف معارضةً للأطروحات التي تدعو إلى الخوف من العرب «عربفوبيا»، محمِّلة المعمّرين آنذاك مسؤولية العمل على تبنّي صورة جامدة، لا تقبل النقاش، في نظرتهم لثقافة «الآخر»...» لقد عثرت «إيزابيل» في الصحراء الجزائرية على وطنها المفقود، وفي الإسلام، على هويّتها الضائعة.

ولعلّ حادثة محاولة الاغتيال التي تعرَّضت لها أكبر دليل على المؤامرة التي حيكت للتخلُّص منها، فقد تجرّأ أحد مريدي الطريقة التيجانية على محاولة قتلها بحَدّ السيف، مما أصابها إصابة بليغة، نُقِلت على إثرها إلى المستشفى، في سياق الخلاف الشديد الذي بلغ حَدّ العداء بين الطريقة التيجانية والطريقة القادرية، التي انتهت بانضمام إيزابيل إلى الأخيرة. ورغم أن «إيزابيل» كانت ضحيّة الاعتداء غير أنها تعرّضت للطرد من الجزائر بعد محاكمة الجاني، وفي رسالة لها نشرتها صحيفة «لوديباش الجيريان» في يونيو 1901، شرحت دوافع حادثة محاولة اغتيالها وظروف وحيثيات القضية، بعد أن تعرّضت للنقد اللاذع والشكوك التي حامت حول إسلامها. تقول في مقتطف من رسالتها: «... طيلة التحقيق القضائي المتضمِّن محاكمة المدعو عبد الله بن محمد،

الرجل الذي حاول اغتيالي، أظهر الضبّاط المكلَّفون بالمحاكمة. في أكثر من مناسبة، استغرابهم تصريحي بأنني مسلمة، وحتى انتمائي للطريقة القادرية، واستغرابهم أنني أرتدي ثياباً عربية، تارةً بزيّ نسائي، وتارة أخرى بزيّ رجالي، وفقاً للظروف والضرورة التي تقتضيها حياتي كرحّالة. وحتى لا يفسَّر اعتناقي للديانة الإسلامية وارتدائي الثياب العربية تفسيراً خاصّاً، أصرِّح أنني لم أكن أبداً مسيحية، ولم أتنصَّر قَطّ، وإن كنت روسية الأصل فإنني مسلمة منذ أمد بعيد، وإن أمّي التي كانت تنتمي إلى طبقة النبلاء الروسية توفِّيت في بونة(عنابة حالياً) سنة 1897م، بعد أن اعتنقَت الإسلام، وهي مدفونة في مقبرة المسلمين هناك، في المدينة... لست محتاجة- إذاً- إلى التظاهر بإسلامي، وليس هناك سبب يدفعني للعب دور ما، كما أن انضمامي إلى الطريقة القادرية تَمَّ بمباركة الشيخ سي محمد الحسين بورقلة... أقول هذا لأرفع كل التباس يحيط بالعملية، وحتى لا يُفَسَّر الاعتداء عليّ بأنه حقد متزمِّت على كل من هو مسيحي، ذلك أنني لست مسيحية، وكل سكّان منطقة «سوف» يعلمون ذلك، بما في ذلك عبد الله نفسه، الذي قام بالاعتداء...».

وفي مقتطف من رسالة أخرى مؤرَّخة في عنابة، خلال صيف سنة 1897م، كتبت إلى صديقها علي عبد الوهاب تقول: «...

إليك أنت ـ عزيزي علي ـ سأكشف له أسرار روحي. ليس لأنني خجولة من اعتناقي ـ علناً ـ ديانةً أحبُّها وأحترمها من الأعماق، ولكن، لأنني أعرف أنك الإنسان الوحيد الذي يتفهَّم مواقفي، وأنك لا تستقبل تصريحي بالشكوك كما يفعل بعض المسلمين، أو بازدراء وسخرية كما يفعل المسيحيون جميعهم، الآن، لست، أبداً، ملزَمة بأن أكون مسلمة: أن أرتدي «قندورة»، وأبقى منزوية، هي تعاليم تَمَّ فرضها على المسلمين قصد حمايتهم من السقوط المحتمل ومحافظةً على طهارتهم، وهكذا. يكفي ممارسة هذه الطهارة، وسيكون العمل محلّ تقدير، لأنه حرّ وغير مفروض...».

رغم صغر سنّها، نسبياً، وقِصَر تجربتها الأدبية، فقد تميَّز أدب «إيزابيل إيبرهاردت»، إلى جانب التنوُّع في استخدام شتّى وسائل العمل الإبداعي: من رواية، وقصّة، ومقالة صحافية، مروراً بأدب الرحلات الذي كانت تجيد تقنياته بحكم معرفتها للغة الأهالي، وعاداتهم وتقاليدهم، ودقّة الوصف في قراءة المعالم وتشخيص الأحداث، وكانت تتمتَّع ـ فضلاً عن ذلك ـ بزاد معرفي كبير، أثرت به كتاباتها، ويتجسَّد ذلك فيما نعثر عليه من روائع الحكمة والفلسفة والتصوُّف داخل نصوصها، بما يؤلِّف ستّة مجلَّدات؛ أي أنها كانت نشيطة كتابياً، بما أنها لم تعرف غير سبع سنوات في مجال الكتابة.

إن العمل الأدبي، بالنسبة إليها، هو موقف حياتي وآليّة لفضح ممارسات الاستعمار والوقوف إلى جانب المضطهدين، تقول: «إن الشيء الوحيد الذي يساعدني على تمضية السنوات المخصّصة لكل واحد منا على وجه الأرض، هو العمل الأدبي، وهذه الحياة المتخيَّلة التي تملك سحراً خاصاً، وتوفِّر لنا مجالاً كبيراً لرغباتنا»، هذا إضافةً إلى أنها كانت تملك موهبة المحقّق الصحافي الذي يدوّن أقلّ التفاصيل، وبحيث تقدِّم الواقع كما هو دون أن تضيف إليه آراءها ومشاعرها الذاتية. لقد كانت تقدِّم الواقع كما هو، بوصفها شاهدة، حتى لو كان هذا الواقع بعيداً عن أهوائها، أو كان ضدّها. وبهذا المعنى- أيضاً- تجد «إدموند شارل رو» أن «إيزابيل» كانت بعيدة- تماماً- عمّا كان يسود، آنذاك، من خلط بين مصالح السياسة والمال، كما تعدّها أوّل امرأة في العالم تغطّي، صحافيّاً، أخبار الحرب، ومن قلب المعركة»، وهي تشير بذلك إلى معركة «المنغار» التي دارت رحاها في الجنوب الغربي الجزائري، حيث تميَّزت تغطيتها لهذه الأحداث الدامية بصدق المعالجة والموضوعية في الطرح، فقد كانت تصغي إلى جميع الأطراف المتحاربة، وتنتقل من مكان إلى آخر قاطعةً مسافات كبيرة، بحثاً عن حقيقة ما كان يجري.

كما تميَّزت نصوصها، أدبيّاً، باستخدام كثيف للكلمات

العربية داخل النص المكتوب بالفرنسية، دون أن تجشِّم نفسها عناء ترجمتها، فاسحةً المجال، بذلك، للقارئ الأوروبي للولوج إلى النص، بما يحمله من دلالات عميقة الأثر، وهو شكل، في الأسلوب، طبع كتاباتها ومَيَّزها عن غيرها من المؤلِّفين، حيث لا يكاد يخلو نصّ لها من سرد لكلمات، باللغة العربية الفصحى، أحياناً، وبالدارجة الجزائرية في أحيان كثيرة، أحصى منها الباحث محمد رشد، في كتابه «السفر الأخير في الظل الدافئ للإسلام»، أكثر من 100 كلمة على مستوى الكتابات الأخيرة لها، فقط. وأكبر الظنّ أنه كان لها الفضل في إثراء جزء من رصيد القاموس الفرنسي بكلمات عربية، وخاصّةً كلمات من الدارجة الجزائرية باتت متداوَلة، إلى الآن، في اللغة الفرنسية، نذكر على سبيل المثال لا الحصر كلمات: «قبة، برنوس، عمامة، بارود، قوربي، بندير، غايطة، شاشية، قربة، مكتوب...إلخ»، هذا إضافة إلى ما تحتويه نصوصها، خاصّة تلك التي تدخل في إطار أدب الرحلات، من نقل دقيق لهموم السكان الجزائريين وترجمة صادقة لأحاسيسهم، حيث كانت تنقل، وبدقّة، كلمات الأغاني الشعبية والأهازيج التي كانت تردِّدها النساء، خاصّة في أثناء مناسبات الأفراح أو مناسبات الأحزان.

النصوص الأخيرة التي كتبتها خلال الحقبة القصيرة التي

سبقت وفاتها، رغم ما أصاب بعضها من تلف، نتيجة تعرُّضها لمياه الفيضان الذي أودى بحياتها، وهي نصوص تضمّنت انطباعاتها وملاحظاتها المسجلة في أثناء رحلاتها عبر مناطق الجنوب الغربي الجزائري الشاسعة، لا سيّما في محطّتَيْ توقُّفها في كلّ من مدينتَي العين الصفراء والقنادسة في بشار، تُعَدّ من طرف النقّاد، أكثر الأوقات تعبيراً عن السعادة في حياتها، ومن أخصبها وأثراها أدباً وكتابة لأنها عاشت فيها ـ كما قالت ـ حضوراً مضاعفاً في الحياة، فهي، من جهة، تلك المغامرة دوماً في الصحراء، ومن جهة أخرى هي الهادئة، الرقيقة، البعيدة عن التفكير بكل ما من شأنه أن يزعجها...»، كما عرفت نصوصها حضور الأنا الأنثوية، كما لم يحدث ذلك من قبل، وهو شيء مهمّ في مسارها الأدبي ومسارها الحياتي، إذا ما عرفنا شخصية الكاتبة التي كانت ترتدي، عن قناعة، لباس الذكور، في حلِّها وفي ترحالها، علاوةً على حرصها على إمضاء جميع كتاباتها بأسماء رجالية (نيكولا بولانسكي، محمود السعدي، سي محمود..)، ويُعزى ذلك ـ بحسب بعض الباحثين، فيما يبدو ـ إلى هامش الأمن في التنقُّل والحرّيّة في الكتابة المتاحَيْن لها، نتيجة للحماية التي وفَّرها لها الجنرال «ليوتي»، عقب تعرُّفه إليها، وإبداء إعجابه بكتاباتها وبشخصيتها، وكان «ليوتي» قد كتب عن وفاتها قائلاً: «... لقد

كانت تمثِّل أكثر ما يجذبني في العالم، لقد كانت ثائرة متمرِّدة. وكم هو رائع أن يجد المرء إنساناً صادقاً مع نفسه إلى هذه الدرجة، بعيداً عن أي أحكام مسبقة وعن أي تبعيّة لأحد، وعن كل مقولة سائدة، إنساناً يمضي في الحياة بقدر من الحرّيّة التي يملكها طائر يحلِّق في الفضاء! يا لها من متعة!».

حَظِيَ أدب «إيزابيل» وشخصيتها باهتمام عالمي كبير، من خلال ترجمة مؤلّفاتها إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية، وقد وجد المؤلِّفون والباحثون ضالّتهم في شخصيتها المغامرة، وما شابَها من ألغاز وأساطير ليحوِّلوها إلى مادّة للبحث والإبداع. وهكذا، أنتجت المطابع الأوروبية، ولا تزال، عشرات الكتب: ما بين رواية، ودراسة، وبحث، تناولت جميعها، بالتفصيل، حياتها وآثارها. نذكر من أهمّ المؤلِّفين، إلى جانب الكاتبة الفرنسية الكبيرة «إيدموند شارل رو» التي سبق الإشارة إلى ثلاثيتها المؤلّفة عنها، الأستاذ «محمد رشد» في كتابْيه: «إيزابيل، المغاربية بالتبنّي» و«السفر الأخير في الظل الدافئ للإسلام» الصادر عن المؤسَّسة الوطنية للكتاب في الجزائر، سنة 1991م، و«إيزابيل إيبرهاردت، ملاحظات وذكريات» لصاحبه روبير روندو والذي صدر عام 1945م، وهناك «فرانسواز دوبون» في كتابَيْها «تاج الرمال» الصادر عام 1967م و«حياة إيزابيل

إيبرهاردت» عن دار فلاماريون للنشر في باريس، وقد صدر عام 1968م، أنات كوباك وكتابها «إيزابيل إيبرهاردت: حياة وموت ثائرة» عن دار كالمان ليفي للنشر، في باريس، سنة 1988م، «الوادي والزاوية» لدينيس إبراهيمي سنة 1983م، وسيمون رزوق في كتابها الصادر سنة 1985م، عن ديوان المطبوعات الجامعية في الجزائر، ولا يمكن، في هذا الصدد، إغفال الثنائي النشط «ماري أوديل دولاكروا» و«جان روني هيلو» اللذين، أَلّفا، معاً العديد من الأعمال عنها، نذكر منها: «ياسمينة وبعض القصص الجزائرية» و«الرمال، قصّة وحياة إيزابيل إيبرهاردت» عن منشورات ليانا ليفي، سنة 1986م، وهناك، أخيراً، الكاتب الجزائري خليفة بن عمارة وكتابه: «إيزابيل إيبرهارد والجزائر» الذي صدر عام 2005م.

أما مؤلّفات إيزابيل، فيعود الفضل الكبير في جمعها وترتيبها إلى صديقها «فيكتور بريكون، V. Barrucand» صاحب جريدة «الأخبار»، وهي صحيفة كانت تصدر، آنذاك، باللغتين: الفرنسية، والعربية، عرف عن خطّها الافتتاحي وقوفها إلى جانب الشعب الجزائري وفضحها للممارسات الاستعمارية. ومن بين هذه المؤلّفات: «في الظل الدافئ للإسلام» وهو كتاب قام بمراجعته وتقديمه «باريكون»، وقد أصدره عام 1905م، ثم تَلَتْه الكتب

الآتية: «ملاحظات على الطريق» سنة 1908م، «صفحات إسلامية» 1919م، «المتشرّد» 1922م، وهي الكتب التي حقَّقها، «باريكون»، وقام ـ أيضاً ـ بكتابة مقدِّمتها. ثم توالى بعد ذلك إصدار كتب أخرى لها، في مختلف الأجناس الأدبية، نذكر من بينها: «في بلاد الرمال»، «يومياتي»، «ياسمينة»، «كتابات حميمية»، «ملاحظات وذكريات»، «رسائل ويوميات»، «كتابات على الرمل».. وغيرها.

ولم يتوقَّف الأمر عند العمل الأدبي فحسب، بل امتدّ هذا الاهتمام ليشمل المسرح والسينما كذلك، فقد قام المخرج الجزائري «جعفر الدمرجي» بإخراج فيلم عنها بعنوان: «الترحال، ERRANCES» من بطولة الفنانة الألمانية «كورين هارفوتش، c.harfotch»، وعبد الحميد شابوني. وفي سنة 1991 قام «إيان برينغل، Ian Pringle» بإخراج فيلم، من إنتاج فرنسي أسترالي مشترك، يحمل اسم «إيزابيل إيبرهاردت» من بطولة «ماتيلدا ماي، Mathilda May» و«بيتر أوتول، Peter O'Toole».

توفِّيت «إيزابيل إيبرهاردت» في مدينة العين الصفراء في الجنوب الغربي الجزائري، إثر فيضان وادي المدينة، ذات يوم ممطر من أيام شهر أكتوبر، سنة 1904م، وقد عُثِر عليها تحت أنقاض المنزل الذي كانت تقطنه في مدينة العين الصفراء مرتديةً

ـ كعادتها ـ ثياب فارس عربي. وهكذا، دُفِنت في مقبرة المسلمين المعروفة باسم «سيدي بوجمعة»، في المدينة ذاتها، حيث لا يزال قبرها قائماً إلى الآن.

بوداود عميّر

ياسمينـة

عاشت في موقع جنائزي، يحيط بجوانبه الخراب، حيث تَخفق روح غريبة لألفية مُلغاة من الزمن. لقد أمضت طفولتها هنا، بين الأطلال الرمادية، ضمن غبار وآثار تجهل ماضيها، تعلَّمت،بين الرتابة الكامنة لهذه المواقع، معاني القضاء والقدر والحلم الغريب. كئيبة، بين جميع قريناتها من البنات، كانت «ياسمينة» البدوية.

كانت الآثار الرومانية لـ«تيمقاد»[1] تحاذي أكواخ بلدتها «القوربية»[2]، وسط سهل ذروري فسيح زُرِعت فيه حجارة مجهولة، لا عمر لها، حطام مبثوث على حقول النبات الشوكي في

1- مدينة أثرية بولاية باتنة. (المترجم)

2- أكواخ قصديرية.(المترجم)

مظهر يتَّسم بالفظاظة، لعلّه النبات الوحيد الذي استطاع الصمود في وجه الحرارة الملتهبة لمواسم الصيف المحرقة، توجد هنا، بكل المقاسات، وبجميع الألوان، نباتات شوكية، بوردها الأزرق الضخم، الناعم، بين الأشواك الطويلة والسميكة والصغرى المرصَّعة ذهباً. تزحف جميعها، في النهاية، بأزهار صغيرة وردية شاحبة. هنا وهناك، غابة صغيرة من نبات العرعار أو شجر العلك الذي شيّطته الشمس.

قوس النصر لا يزال قائماً يحتضن الأفق المضطرم، ثمّة أعمدة عملاقة، رؤوس بعضها مهشّم، وبعضها الآخر مزخرف بتيجان، فيما كانت مجموعة أخرى من الأعمدة ترنو إلى السماء، كأنه تمرّد عنيد ضدّ الموت الحتمي، إلا أنه تمرُّد غير مُجْدٍ.

المسرح الأثري، بمدرجه الذي يبدو أنه نُظِّفَ حديثاً، الساحة الصامتة، الطرق المهجورة، تمثِّل جميعها هيكلاً لمدينة كبيرة ودَّعت الحياة، أمجاد القياصرة، وقد هزمهم الزمن، اضمحلوا داخل الأمعاء الغيورة لهذه الأرض الإفريقية التي تلتهم ببطء، ولكن بتأكيد، جميعَ الحضارات الأجنبية أو المعادية لروحها.

منذ الفجر، عندما لاح جبل الأوراس بعيداً، يلمع بوميض شفّاف، كانت «ياسمينة» قد غادرت «القوربي» البسيط، تمشي في سكينة عبر السهل، وهي تدفع أمامها ماشيتها القليلة، من ماعز

سود وخرفان رمادية.

عادةً، كانت تقود ماشيتها نحو مضيق مضطرب وموحش في «وادي قير» بعيداً عن «الدوّار»[1]، حيث يلتقي صغار الرعاة، فيما تقف «ياسمينة» جانباً غير مكترثة بلعب الأطفال الآخرين.

تمضي أيّامها المتعاقبة في صمت وسكينة، وسط السهول، دون اكتراث، ولا أدنى تفكير، تحلم بأشياء غامضة غير محدَّدة، يستحيل ترجمتها إلى أيّة لغة من لغات البشر، أحياناً، ولتسلية نفسها، تقطف من عمق الوادي الجافّ زهيرات غريبة تفادتها الشمس، ثم تشرع في ترديد بعض الأهازيج العربية.

كان أبوها «الحاج سالم» شيخاً مسنّاً، ولم تكن أمّها «حبيبة» وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها سوى مومياء هَرِمة بلا عمر، منهمكة في تأدية الأشغال الشاقّة لـ«القوربي»، ورعاية حقل الشعير الصغير.

وهكذا، من انبلاج الفجر المشعّ إلى غسق الليل الكئيب، عاينت «ياسمينة» الصغيرة انقضاء فصل آخر من الربيع شبيهاً بالفصول الأخرى، وقد اختلط كلّ شيء في ذاكرتها.

كان لـ«ياسمينة» أخوان يكبرانها سنّاً، التحقا بصفوف

1- وردت في النص، بالعربية، وتعني تجمُّعاً سكّانياً محدوداً، يشكّل قرية أو أصغر. (المترجم)

«السباهي[1]»، أرسلوهما بعيداً في الصحراء، أختهما الكبرى فاطمة متزوِّجة، تسكن «الدوّار» الرئيسي «لأولاد مريم»، لم يكن هناك في «القوربي» سوى أطفال صغار، و«ياسمينة» التي كانت تبلغ الرابعة عشرة من عمرها.

في يوم من أيّام الصيف، قادت قطيعها متوجّهة صوب «تيمقاد»، وقد أضاءت طريقها الأشعّة الأخيرة للشمس، وهي تميل نحو الغروب، كان السهل متألِّقاً، وهي كذلك، كزهرة جميلة بلونٍ لا متناهٍ في رقّته. وعادت «ياسمينة» تدندن أغنية صحراوية تحبّها، كانت قد حفظتها من شقيقها «سليمان» الذي عاد في عطلة، منذ عام:

فتاة قسنطينة،
ماذا تفعلين هنا،
أنت التي لست من البلد أبداً
أنت التي لم تخلقي لتعيشي
بين الكثبان التي لا ترى؟
فتاة قسنطينة،
لقد جئت وتمكّنت من قلبي،

1- السباهي، SPAHI (أو السبايسة، بالدارجة الجزائرية) كلمة من أصل تركي، كانت تُطلَق على فرقة مسلّحة من الأهالي المنضوين تحت لواء الجيش الفرنسي، تأسّست عام1834 في الجزائر، وحُلّت عام 1962.(المترجم)

ستحملينه إلى بلدك
أقسمت إنك تعودين،
ولكن، متى ستعودين إلى بلد النخيل؟
متى ستعودين إلى «الوادي»؟
لن تجديني في دار الورود
ابحثي عني في دار الخلود

رويداً رويداً، أخذت الأغنية الشجيّة تحلِّق عبر الفضاء الأزلي، وقد مالت الشمس إلى المغيب، هادئةً هدوء الروح الصغيرة، والوحيدة الساذجة، لـ«ياسمينة»...هادئةً وعذبةً كما البحيرات الصغيرة التي تدعها الأمطار في فصل الربيع، للحظة، في المروج الإفريقية العابرة، حيث لا ينعكس شيء سوى اللازوردي اللامتناهي لسماء غابت عنها السحب.

عندما وصلت «ياسمينة» أبلغتها أمّها أنها ستتزوّج من «محمد الأعور» صاحب مقهى في «باتنة»، بكت «ياسمينة» في البداية لأن «محمد» كان أعور وقبيح الشكل، ولأن هذا الزواج كان مفاجأة لها، ولم يكن متوقَّعاً، ولكن، سرعان ما هدأ روعها وابتسمت، ذلك أن الأمر بالنسبة إليها كان قضاءً وقدراً.

مرّت الأيام، لم تعد «ياسمينة» تذهب إلى المرعى، كانت منهمكة، بيديها الصغيرتين، في تحضير حقيبتها المتواضعة

لعرسها البدوي.

ما من واحدة من نساء «الدوّار» فكَّرت في سؤالها عما إذا كانت سعيدة بهذا الزواج، لقد منحوها لـ«الأعور» كما يمكنهم أن يمنحوها لأي مسلم آخر، فلا معنى في هذه الحالة للسعادة، ولا للندم كذلك.

كانت «ياسمينة» تعلم أن مصيرها أفضل، قليلاً، من نساء أخريات من قبيلتها، ومادامت تسكن المدينة، فليس لها كما «الموريات»[1] سوى الاعتناء ببيتها وتربية أطفالها.

وحدهم الأطفال يضايقونها أحياناً، يصيحون: «امرأة الأعور!». كانت تمنع نفسها، كذلك، من الذهاب مع سقوط الليل للبحث عن ماء الوادي مع النساء الأخريات، وقد كانت هناك عين ماء في ساحة «البرج» بالمواقع الثرية، لكن الحارس «الرومي»[2] الموظّف من الفنّون الجميلة، لم يكن يسمح، مطلقاً، لأهالي القبيلة باستعمال الماء الصافي والبارد للعين، لقد فرض عليهم ماء الوادي الشديد الملوحة الذي تدوسه قطعان الماشية في غدوّها وفي رواحها، وهو ما جعل سكّان القبيلة يصابون بالحمّى الخبيثة.

1- تطلق على مسلمي إسبانيا في العصور الوسطى. (المترجم)

2- كلمة شعبية كانت تُطلَق على الأوروبي بوجه عام. (المترجم)

في أحد الأيام أبلغ الأعور أبا «ياسمينة» أنه لا يمكنه، قبل فصل الخريف، الالتزام بمصاريف العرس ودفع مهر الفتاة الشابّة.

أنهت «ياسمينة» جهاز العروس، وقد ناب شقيقها الأصغر «أحمد» عنها في وظيفة الرعي، لكنه سرعان ما سقط مريضاً، ثم عادت، من جديد، إلى وظيفتها راعية، وإلى قطع المسافات الطويلة عبر أرجاء السهل.

استمرّت في أحلامها اللامتناهية، أحلام العذراء البدائية، في حين أن اقتراب الزواج لم يغيِّر فيها شيئاً، لم تكن تتطلَّع إلى أيّ شيء، ولا ترغب في أيّ شيء، استوطنها اللاشعور، ومن ثَمَّ كانت سعيدة.

كان هناك، في «باتنة»، ملازم شاب انتُدِب لـ«مكتب العرب»[1]، قَدِم حديثاً من فرنسا، وقد طلب المجيء إلى الجزائر، ذلك أن حياة الثكنة، التي قضاها لمدّة سنتين عقب خروجه من «سان سير»، بعثت فيه الكثير من الضجر، كان يحمل روح الحلم والمغامرة.

في «باتنة» أصبح، وبسرعة، صيّاداً، لضرورةٍ اقتضتها المسافات الطويلة التي كان يقطعها عبر أرجاء الريف الجزائري الوعر الذي

1- «arabe bureau»: هيئة عسكرية استعمارية، أُنشئت في الجزائر عام 1833، لإدارة شؤون الأهالي آنذاك. (المترجم)

استهواه، منذ البداية، شخصياً.

فَجْرَ كلّ أحد، كان يعبر على سبيل الصدفة، الطرقَ الوعرة للسهل تارةً، وتارةً أخرى يعبر الدروب الصعبة للجبال.

في أحد الأيام، وقد أصابه إرهاق منتصف النهار، دفع بحصانه نحو الوادي المتوحِّش، حيث تحرس «ياسمينة»غنمها، جالسةً تحت ظلّ صخرة، يميل لونها إلى الاحمرار، وحيث ينمو شجر العرعار العطر، كانت «ياسمينة» تلهو، شاردة الذهن بعيدان خضراء، تردِّد أغانيَ بدوية، كما الحياة، يتجاور فيها الحبّ والموت.

كان الضابط مرهقاً، وقد هـدّأ الشعر المتوحِّش من روعه،قليلاً، عندما عثر على موقع ظليل لحصانه، تقدَّم صوب «ياسمينة»، لم يكن يعرف كلمة واحدة باللغة العربية، سألها بالفرنسية:

ـ هل يوجد ماء هنا؟

دون أن تجيبه، نهضت «ياسمينة» تهمّ بالانصراف قلقة، مذعورة، أو تكاد.

ـ لماذا أنتِ خائفة مني؟ لن يحدث لك مكروه؟ قال مبتهجاً بهذا اللقاء.

لكنها فرَّت من عدوّ سلالتها المنتصر، وانصرفت.

تابعها الضابط بعينيه مليّاً، بدت له «ياسمينة» رشيقة تحت

أسمالها الزرقاء، بوجهها البيضوي الأسمر، حيث تتلألأ العينان السوداوان للعِرْق البربري بدهشة، تعابير وجوههم الحزينة الغامضة تتناقض، بغرابة، مع المحيط الحسّاس والطفولي للشفاه الدموية، ثمّة حلقتان صلبتان على شحمتَيْ أذنيها تحيطان بوجهها الفاتن، وسط جبهتها، بالتحديد، رُسِم صليب بربري باللون الأزرق، رمز مجهول غير مفهوم لدى الأهالي الذين لم يكونوا، إطلاقاً، مسيحيين، وقد اكتشفهم الإسلام، في عزّ ازدهاره، متوحِّشين وثنيّين.

على رأسها ذي الشعر الصوفي المسترسل، الحالك السواد، وضعت خماراً أحمر بسيطاً، ملتفّاً على شكل عمامة مسطّحة ومشعّة، يوشك كل شيء فيها أن يتحوّل إلى سحر أسطوري، لم يستطع الضابط «جاك» أن يفهم كنهه.

مكث هنا طويلاً، قابعاً على الصخرة التي غادرتها «ياسمينة»، كان يفكّر في البدوية وفي السلالة التي تنتمي إليها. إفريقيا هذه، التي جاءها بإرادته، بدت له عالماً خرافياً لم يُكتَشَف بعد، والسكان العرب، من خلال السمات الخارجية لطباعهم، أغرقوه في دهشة دائمة، لم يكن يعاشر رفاقه في الدائرة، كما لم يكن يردِّد الكليشيهات العدائية لكل ما هو عربي ومسلم.

ينحدر «جاك» من عائلة نبيلة في «الآردين»، عاش طفولته

في ظروف قاسية وسط مدرسة دينية في الإقليم، حافَظَ عبر السنوات التي قضاها، على روح «جبلية» لا تزال مغلقة، نسبياً، أمام هذه «الروح المعاصرة»، متشكّكاً ومعارضاً لرأي مسبق، يحمله بسرعة إلى الضعف الخلقي.

في الجزائر، لم يكن يعرف سوى ملحمة الغزو والقتال واستعراض البطولات، من هذا وذاك، منذ ثلاثين سنة، بلا توقُّف، ولأنه كان ذكيّاً تمكَّن من تحليل أحاسيسه وترتيب أفكاره، بشكل آخر.

وهكذا، في يوم الأحد الموالي، عندما وجد نفسه يسلك طريقاً نحو «تيمقاد»، راوده إحساس بأنه جاء، فقط، لرؤية البدوية الصغيرة.

ولأنه يتميَّز بالنبل والصفاء، لم يحاول، مطلقاً، الاحتيال على ضميره، أقرّ بعدم الصمود أمام رغبته في شراء قطعة حلوى بِنِيّة ربط علاقة تعارف مع تلك الفتاة الصغيرة التي سيطرت على تفكيره خلال الأسبوع كلّه.

والآن، وهو ينطلق فجراً من الطريق الجميل لـ«لامبيز»، مسرعاً بحصانه، استولى عليه نفاد صبر استغربه، والذي لم يكن، في الواقع، سوى فراغ استوطن قلبه، فهو لم يكد يخرج من الغموض المبتهج للمراهقة، حياة العزلة، بعيداً عن بلده الأصلي، طهارة

تفكيره التي لم تدنِّسها فجور باريس، لم يكن ـ إذاً ـ سوى هذا الفراغ العميق الذي جَرَّه إلى المجهول ليستشفّه بعيداً في مستهلّ المغامرة البدوية.

أخيراً، ولج المضيق العميق والضيّق لـ«الوادي» الجاف. هنا وهناك، في الاكفهرار المتوحِّش للعلّيق، ألقى قطيع من الماعز ببقعة سوداء قرب قطيع من الغنم الأبيض، فيما كان «جاك» يبحث، بقلق، عن قطعان «ياسمينة».

ترى: ما اسمها؟ كم عمرها؟ هل ستتكلَّم معي هذه المرّة، أم أنها ستفرّ مني مثل المرّة السابقة؟ كان «جاك» يطرح على نفسه كل هذه الأسئلة، بقلق متزايد، ثم: كيف يمكنه أن يتحدّث معها، طالما أنها ـ بالتأكيد ـ لا تعرف كلمة فرنسية واحدة، وهو، بدوره، لا يعرف حتى لغة «الصبير»[1]؟.

أخيراً، وفي البقعة الأكثر عزلةً من «الوادي»، شاهد «ياسمينة» منبطحة بجوار غنمها تطوِّق رأسها بيديها.

ما إن لمحته حتى انتصبت قائمة، تبدي من جديد عداءها. كانت معتادة على القسوة والاستخفاف اللذين كان يُبدهما عمّال الآثار تجاههم، وكانت تمقت كلّ ما هو مسيحي. من الواضح أن «جاك» لم يكن يريد بها شرّاً، يكفي أنها تراه شابّاً يافعاً وسيماً،

1- تُطلَق على اللغة الفرنسية الخليطة باللغات الأوروبية والعربية والبربرية.(المترجم)

يرتدي بذلة من القماش الأبيض.

بجوارها «قربـة»[1] ماء صغيرة معلَّقة بين ثلاثة أعمدة تشكِّل حزمة. بإشارةٍ، طلب منها ماءً، ودون أن تنبس بكلمة، أومأت بيدها ناحية القربة.

شرب قليلاً من الماء، ثم سلَّمَها قبضةً من الحلوى الوردية. بخجل، ودون أن تتجرّأ على تقديم يدها، قالت بالعربية، بنصف ابتسامة، وقد رفعت ـ لأوّل مرّة ـ عينيها نحو عيني «الرومي»:

«واش نو»[2]؟

حلوى! أجاب ساخراً من جهلها، ولكنه كان سعيداً لأن الجليد انكسر، أخيراً، بينهما.

قضمت قليلاً منها، ثم ـ فجأةً، وبصوت خشن قليلاً ـ قالت: شكراً!

ـ لا، لا، خذيها كلّها.

ـ شكراً!،شكراً!، «مسيو»!، شكراً!

ـ ما هو اسمك؟

لم تفهم، وسرعان ما ابتسمت عندما شرع يعدّ لها ما يعرفه من أسماء للنساء العربيات، ثم أجابت: «سمينة» (ياسمينة).

1- وردت في النص، بالعربية.

2- بمعنى: ما هذا؟، بالدارجة الجزائرية.

أرادها أن تجلس بجواره للاستمرار في الحديث، لكنها انتفضت فارّة من وجهه، وكأن روعاً مباغتاً أصابها.

كلّ أسبوع، عندما يقترب يوم الأحد، كان «جاك» يحدِّث نفسه، بأنه يتصرَّف تصرُّفاً شريراً، وأن واجبه يقتضي أن يترك هذا المخلوق البريء في سلام، فلا شيء يجمع بينهما وهو ـ من ثَمَّ ـ لا يزيدها إلا معاناة، لكنه لم يكن حُرّاً في الذهاب إلى «تيمقاد»، أو المكوث في «باتنة»، ثم الانصراف.

لم تعد «ياسمينة» تخشاه. في كلّ مرّة كانت تحرص على الجلوس من تلقاء نفسها بجواره، تحاول أن تعلِّمه أشياء يجهل معانيها في غالب الوقت. رغم المجهودات التي بذلتها الفتاة الشابة، ولأنها أدركت استحالة تعلُّمه، ضحكت ضحكاً قلَبَ رأسها إلى الخلف، وهو ما أثار فيه إحساساً ما بالشبق، بعد أن اكتشف نصاعة أسنانها البيضاء كالحليب.

في المدينة، حرص «جاك» حرصاً شديداً على دراسة العربية الجزائرية بحماس شديد أثار استياء وسخرية رفاقه.

أحبّ «جاك» «ياسمينة» بجنون، بكلّ عنفوان رجل أحبَّ لأوَّل مرّة، حبّ جمع فيه، معاً، الحلم واللذة، يأخذ فيه امتلاك الجسد شكلاً من أشكال الطقوس التي يغلِّفها الحنان الصادق.

ما كان يحبّه في «ياسمينة» ـ نتيجة لجهله المطبق لروح

البدوية ـ أنها كانت، بالنسبة إليه، كائناً خيالياً صرفاً، وليد مخياله، ومن المؤكَّد أنه لا يشبه الواقع كثيراً.

مبتسمة، مع شيء من الكآبة في نظرتها، كانت تصغي إلى «جاك»، وهو يحاول أن يغنِّي لها، فاشلاً، جميع رغباته التي لم يستطع حتى أن يربط بينها.

ـ مستحيل، قالت بصوت استوطنه حزن عميق، أنت «رومي»[1] و«كافر»[2]، وأنا مسلمة. هل تعلم؟ عندنا «حرام»[3] أن تتزوّج مسلمة مسيحياً أو يهودياً، ومع ذلك أنت رائع وجميل، وأحبّك.

في أحد الأيام، وبسذاجة، أمسكت يده، وقالت وهي تتفحَّصه بحنان: «صِرْ مسلماً، أمر بسيط... ارفع يدك اليمنى هكذا، وقل معي: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

بمهل، وكأنها لعبة بسيطة لديه، أعاد ترديد هذه الكلمات، بإخلاص، استجابةً لها؛ فمن شأن النطق بهذه الكلمات، بإخلاص أن يدخل صاحبها الإسلام. لكن «ياسمينة» لم تكن تعلم أنه يمكن التلفُّظ بهذه الكلمات دون الاعتقاد بها، كانت تظنّ أن النطق، وحده، بهذه الكلمات، من طرف «روميّها» يمكن أن يحوِّله إلى مسلم. وكان «جاك» يجهل الأفكار القديمة التي بنى

1- وردت في النص، بالعربية.

2- وردت، في النص، بالعربية.

3- الملاحظة السابقة نفسها.

بها الإسلام الشعب الأمّي. لم يضع في حسبانه ما أقدم عليه.

في هذا اليوم، وفي لحظة الفراق، عفويّاً وبابتسامة سعيدة، عانقته «ياسمينة» العناق الأول... كان- بالنسبة إلى «جاك»- انتشاءً لا يوصَف، نحو المطلق.

لقد أصبح، منذ الآن، ما إن يكُن في راحة، أو يتوافر على بعض الساعات، حتى يسرع في التوجُّه، راكضاً بحصانه، إلى «تيمقاد».

بالنسبة إلى «ياسمينة»، لم يكن «جاك» «روميّاً» ولا «كافراً»! لقد أعلن الشهادة كاملة. وفي أحد الأيام، وبرغبتها الجامحة لعرقها، منحته...

عاشا معاً لحظة هناء وسعادة لا توصف، استيقظا، بعدها، على روح متوقِّدة بنور جديد، وكأنهما خرجا، للتوّ، من نفق مظلم.

الآن، يمكن لـ«جاك» أن يقول لـ«ياسمينة»، تقريباً، كلّ الأشياء الرقيقة، والأشياء المؤلمة التي تملأ روحه.

بسرعة، استطاع أن يتطوَّر في تعلُّم العربية، يدعوها، أحياناً، للغناء.. وهكذا، مستلقياً قرب «ياسمينة»، واضعاً رأسه على ركبتيها، بعينين مغمضتين، وقد استسلما لأحلام جميلة باهتة الصور.

في بعض الأوقات، كانت تراود ذهنه فكرة (وإن بدت طفولية

صعبة التحقيق)، هي أن يترك كلّ شيء، وإلى الأبد، يتخلّى عن عائلته في فرنسا، ليقيم في، إفريقيا، مع «ياسمينة»، الوقت كلّه، بل يستقيل من منصبه ليذهب معها، مرتدياً «برنوساً»[1] و«عمامة»[2]، يشتركان في حياة طويلة دون منغِّصات، في أحد قصور الجنوب. ولكن، عندما يكون «جاك» بعيداً عن «ياسمينة» يعود إلى وعيه، ويبتسم لتصرَّفاته الصبيانية الكئيبة، وعندما يكون إلى جوارها يستسلم لها بنمط من ليونة فكرية، ذات رقّة لا توصَف، يأخذها بين أحضانه، وقد غرق نظره في ظلّ نظرها يردّد ـ إلى مالا نهاية ـ الكلمة الجميلة بالعربية: «عزيزة»! «عزيزة»! «عزيزة»!.

لم تفكِّر «ياسمينة»، أبداً، في مصير حبّها لـ«جاك»، تعرف أن كثيرات من بنات جنسها لهن عشّاق يخفينهم، بعناية، عن عائلاتهن، ولكن، غالباً ما ينتهي إلى زواج.

عاشت سعيدة، دون تفكير، ودون أية رغبة أخرى سوى أن ترى سعادتها تستمرّ على الدوام، عندما رأى «جاك» أن حبّهما لا يمكن أن يبقى هكذا إلى الأبد؛ فهو يدرك استحالة الزواج بينهما، كما أن لديه أسرة هناك في البلد، أضف إلى ذلك أنه لا يفكِّر حتى في مرافقة هذه البدوية الصغيرة إلى وسط آخر،

1- لباس تقليدي يرتديه بدو الجنوب الغربي في الجزائر، وقد وردت في النص، بالعربية.

2- الملاحظة السابقة نفسها.

نحو أرض بعيدة وغريبة. ألم تقل له إنهم سوف يزوِّجونها من «قهواجي»[1] المدينة في نهاية فصل الخريف؟ ولكنها، كانت بعيدة، نهاية الخريف هذه، ليستسلم بعد ذلك لهناء الساعة.

ـ عندما يحاولون تسليمي إلى الأعور ستأخذني معك وتخبِّئني في مكان ما من الجبل، بعيداً عن المدينة، هناك، حيث لا يمكنهم العثور عليَّ أبداً، أنا أحبّ السكن في الجبل، حيث الأشجار الباسقة الأكبر سنّاً من قدماء المسنّين، وحيث الماء العذب والصافي الذي يسيل في الظلّ، وزقزقة العصافير ذات الريش الأحمر، والأخضر والأصفر.. أرغب في أن أصغي إلى أصواتهم، وأنام في الظلّ، أشرب ماء عذباً. ستخبئني في الجبل، وستأتي للبحث عني كلّ يوم. سأتعلّم الغناء كما العصافير، وسأغنّي من أجلك، وسوف أعلِّمهم كيف ينطقون اسمك ليعيدوا ترديده عليّ عندما تكون غائباً.». هكذا، كانت تحدِّثه «ياسمينة» أحياناً، بنظرتها الثاقبة والجادّة.

«لكن عصافير جبل «تقرت» عصافير مسلمة، لا يمكنها ترديد اسمك «الرومي»، لا يمكنها النطق بغير اسم مسلم... سأسمّيك «مبروك» حتى يحفظوه، وسيكون ذلك فأل خير».

بالنسبة إلى «جاك» أصبحت اللغة العربية موسيقى عذبة،

1- النادل، بالدارجة الجزائرية، وقد وردت في النص، بهذه الصورة.

لأنها كانت لغتها هي، وكل شيء يأتي منها يغمره، لم يكن يفكِّر في أي شيء، يكفي أنه كان يعيش سعيداً.

في أحد الأيام، علم «جاك» بخبر تعيينه في مركز بالجنوب الوهراني، قرأ، وأعاد قراءة الأمر بالالتحاق، لم يكن له معنى سوى أن يذهب ويترك «ياسمينة» لتتزوج من صاحب المقهى الأعور، وسوف لن يراها على الإطلاق.

قضى أياماً ولياليَ يبحث، عبثاً، عن وسيلة معيَّنة للامتناع عن الذهاب: تبادل تعيين مع صديق ـ مثلاً ـ ولكن، دون جدوى. سوف يخفي عنها ما ينتظرهما من شقاء إلى آخر لحظة، طالما أن هناك بصيصاً من الأمل في الأفق.

ليالٍ طويلة قضاها بين الأرق والحمّى، توصَّل خلالها إلى حلول صعبة التحقيق: تارة يقرِّر المخاطرة بالهروب معها والزواج منها، وتارةً أخرى يفكِّر في تقديم استقالته والتخلّي عن كلّ شيء من أجل «ياسمينة» والتحوُّل، حقيقةً ـ إلى «مبروك» الذي تحلم معه. ولكنَّ تفكيراً ما كان يوقفه، فهناك، في «الأردين»، أب مسنّ، وأمّ يكسو البياض شعرها، ستموت ـ لا محالة ـ كمداً إن علمت أن ابنها «جاك الملازم الوسيم» ـ كما يطلقون عليه في البلد ـ يقوم بجميع هذه الأشياء التي تنغّص باله، خلال الساعات الطويلة والليالي المضنية.

كانت «ياسمينة» قد لاحظت ارتسامات القلق والحزن باديةً على وجه «مبروك» الذي لم يتجرّأ على الاعتراف بما يجيش في خاطره، كان يقول لها إن أمّه مريضة جدّاً، هناك «في فرنسا» وسرعان ما حاولت «ياسمينة» أن تواسيه وترسِّخ لديه نظرتها البسيطة للقضاء والقدر.

ـ هذا «مكتوب»، قالت. مصائرنا بيد الله، سنموت لنعود إليه... لا تبكِ يا «مبروك»، هذا مقدَّر علينا.

حدَّث نفسه بمرارة: «نعم، نتخلّى فيه عن كل ما هو غالٍ لدينا. لماذا القدر إذاً، وهذا المكتوب الذي حدثتِني عنه، لماذا يفرِّقنا قبل الأوان، مادمنا نحن ـ الاثنين ـ على قيد الحياة؟».

أيام قليلة مرّت قبل اليوم المحدَّد لانتقاله الإجباري، توجَّه «جاك» إلى «تيمقاد»، ذهب، وقد ملأ قلبه الخوف والقلق، لم تكن لديه رغبة في أن يقول لها إن الفراق، من المحتمل ـ إن لم يكن من المؤكَّد ـ أن يكون فراقاً أبديّاً.

حدَّثَها، فقط، عن مهمّة تدوم نحو ثلاثة أو أربعة أشهر، ترقَّب «جاك» انفجاراً من اليأس الممزّق، لكنها بدت منتصبة أمامه، لم تتزعزع، تفرّست مليّاً وجهه، وكأنها تحاول أن تستقرئ أفكاره الضاربة في الكتمان، هذا التحديق المفعم بالأسرار، والذي لا يحمل تعابير مفهومة، أزعجه كثيراً: إلهي! هل ستذهب إلى

الاعتقاد بأنه سيتخلّى عنها بمحض إرادته؟

كيف يمكنه أن يصارحها بالحقيقة؟ كيف يمكن له أن يلقي في روعها أنه ليس سيِّد مصائره، قد تعتقد أن الضابط الفرنسي شخص قادر على فعل كلّ شيء أو يكاد، وأنه حُرّ، تماماً، في فعل أي شيء يخطر في باله!.

واستمرّت «ياسمينة» تحدِّق في وجه «جاك»، عيناها صوب عينيه، محتفظةً بالصمت.

لم يستطع تحمُّل نظرها، الذي بدا له كالاتّهام، طويلاً، ثم لم يلبث أن أخذها بين ذراعيه:

ـ «عزيزة»، «عزيزة» أتغضبين مني!؟ ألا ترين أن قلبي يتقطّع كمداً، ولو كان الأمر بيدي لآثرت البقاء، وما ذهبت إطلاقاً.

قطّبت حاجبيها الرقيقين الأسودين، ثم قالت:

كذّاب! كذّاب! أنت لا تحبّ «ياسمينة» خليلتك، زوجتك، خادمتك، التي سلبت منها عذريَّتها، أنت الذي ترغب، بمحض إرادتك، في الذهاب، وتكذب ـ أيضاً ـ عندما تقول لي إنك ستعود قريباً. أعلم أنك لن تعود أبداً، أبداً، أبداً! بدت هذه الكلمة لـ«جاك»، وهي تتكرّر بإصرار، وبصوت شبه احتفالي، بمثابة أجراس تأبينية، كان يستمع إليها في شبابه: «أبداً»! «أبداً»! كان، في الصوت نفسه، لهذه الكلمة، شيء هو خليط من النهاية،

والتصلُّب، والحتمية.

ـ نعم، ستذهب، وستتزوّج من «رومية»، هناك في فرنسا.

اشتعل لهيب داكن في عينيها الكبيرتين الشقراوين، تخلَّصت، على حين بغتة، من حضن «جاك»، بصقت في الأرض بازدراء، في حركة متوحِّشة ساخطة:

كلاب، وأبناء كلاب، جميع «الروميين»!

ـ آه، «ياسمينة»، لكم أنت ظالمة! أقسم لك إنني توسَّلت إلى جميع أصدقائي، واحداً بعد الآخر، من أجل الذهاب مكاني، ولكنهم رفضوا جميعهم.

ـ أرأيت؟ عندما لا يرغب ضابط بالذهاب، لا يذهب أبداً!

ـ ولكني، أنا الذي التمست من رفاقي الذهاب مكاني، لا سلطة لي عليهم، في حين أنني خاضع للجنرال، لوزير الحرب.

غير مصدِّقة، مكثت «ياسمينة»، مغلقة، تناصبه العداء.

تأسَّف «جاك» إلّا أن انفجار اليأس الذي كان يخشاه في أثناء الطريق لم يحدث.

استمرّا صامتَيْن طويلاً، قد فرَّقت بينهما هوّة شاسعة من هذه الأشياء الأوروبية التي هيمنت، بإجحاف، على حياته، والتي لن تفهمها «ياسمينة» بتاتاً.

في النهاية، وقد طفح قلبه مرارةً، اغرورقت عينا «جاك»

بالدموع، وقد أسلم رأسه إلى ركبتي «ياسمينة». عندما شاهدته يجهش بالبكاء يائساً، فهمت أنه صادق، أخذته في أحضانها، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

مبروك! يا بؤبؤ عيني! يا ضوئي! يا بقعة سوداء في قلبي! لا تبكِ، سيّدي، لا تذهبْ «يا سيِّدي». إذا قررت الذهاب سأستلقي وسط طريقك، وسأموت، وهكذا ستمرّ على جثّتي، أو إذا كنت مصمِّماً على الذهاب، خذني معك، سأكون أمَة لك، وسأعتني بمنزلك وبحصانك، وإن كنتَ مريضاً سأمنحك دماً من عروقي لتشفى، أو أموت من أجلك يا «مبروك»، «يا سيدي»! خذني معك.. ولأنه آثر الصمت، الذي كسره استحالة ما كانت تطلب منه، أردفت تقول:

ـ تعال إذاً، ارتدِ ثياباً عربية، ولنهرب معاً إلى الجبل أوـ إن شئناـ بعيداً، إلى الصحراء، بلد «الشعانبة» و«الطوارق»، ستصبح مسلماً حقّاً، وستنسى فرنسا.

ـ لا أستطيع. لا تطلبي مني المستحيل، يوجد لديّ هناك، في فرنسا، أبوان طاعنان في السنّ، سيموتان كمداً... أوه! الله وحده يعلم كم أرغب في الاحتفاظ بك دائماً بجانبي.

أحسَّ بشفتيها الدافئتين تلامسان، بمهل، يديه، في فيض من دموعهما الممتزجة. هذا الاتّصال أيقظ فيه أفكاراً أخرى، وقد

غمرتهما لحظة أخرى من السعادة العميقة والمطلقة، لم يعيشا مثلها أبداً، حتى في زمن سعادتهما الهادئة.

ـ آه! كيف يمكننا أن نفترق! تمتمت «ياسمينة»، والدموع تنهمر من عينيها.

رجع «جاك» مرَّتين متتاليتين، وقد أحسَّ بذلك الشغف الذي لا يوصف، والذي ربط بينهما بلا ذوبان، وإلى الأبد.

في آخر المطاف أذنت ساعة الوداع، الوداع الذي كان يعلمه أحدهما، بينما استشفّها الآخر أبديّة.

في آخر قبلة لهما، استجليا كلّ ما في روحيهما.

وقت طويل مضى على «ياسمينة»، وهي تصغي إلى صدى إيقاع وثب حصان، لا يصل إلى سمعها، وعندما يخلد السهل إلى صمته المألوف، تلقي البدوية الصغيرة بنفسها أرضاً، وتجهش بالبكاء.

مضى شهر كامل على ذهاب «جاك»، عاشته «ياسمينة» كشكل من الخدر الرتيب.

كانت تقضي نهارها كاملاً، وحيدةً، في الوادي المتوحِّش، تفترش الأرض جامدةً لا تتحرَّك، لم تكن تحمل في داخلها أيّ تمرُّد على «المكتوب» الذي كانت معتادة على إسقاطه، منذ طفولتها، على جميع ما وقع لها: خيراً كان أم شرّاً، فقط، ألم

مطلق، ومعاناة مستمرّة، بلا هدنة وبلا استراحة، المعاناة الفظّة والجائرة لكائنات بلا وعي، أطفال وحيوانات، لم يكن لديهم حتى العزاء المرير لفهمهم: كيف، ولماذا يعانون!.

مثل جميع البدو، الخليط المعقَّد من الدم الأسيوي الضائع وسط قبائل الأهالي: شاوية، بربر، إلخ، لم يكن لدى «ياسمينة» سوى فكرة بسيطة عن الإسلام، كانت تعرف ـ دون أن تدرك ما يحمل ذلك من معنى ـ أن هناك إلهاً واحداً وأزليّاً خلقَ كلّ شيء، وأنه «ربّ العالمين» وأن محمداً هو نبيّ الإسلام، والقرآن هو التعبير الكتابي عن العقيدة، كانت تحفظ ـ أيضاً ـ سورتين أو ثلاث سور قصيرة من القرآن، الذي لا يمكن لأي مسلم أن يجهله، لم تكن تعرف، من الفرنسيين، سوى أولئك الذين أوكلت إليهم حراسة المواقع الأثرية، ويشتغلون في التنقيب، كما كانت تعلم، جيداً، حجم معاناة قبيلتها من ممارساتهم؛ من هنا، خلصت إلى أن جميع «الروميين» أعداء أشدّاء للعرب، وقد بذل «جاك» المستحيل ليفهمها أن هناك من الفرنسيين من لا يحملون أية ضغينة للمسلمين، ولكنه ـ في قرارة نفسه ـ كان يعلم، جيداً، أنه يكفي وجود بضعة موظّفين جهلة ومتوحِّشين، لتُعَزِّز الكراهية في عيون الفقراء، من سكّان القرية الأميين، نحو فرنسا.

كانت «ياسمينة» تسمع جميع العرب المجاورين لها يشتكون

من دفع الضرائب الباهظة، وما تثيره الإدارة العسكرية من رعب في نفوسهم، وسلب لممتلكاتهم، وقد خلصت إلى أن هؤلاء الفرنسيين الطيبين والإنسانيين الذين حدَّثها «جاك» عنهم، من المرجَّح أنهم لم يأتوا إلى بلدها، وأنهم مكثوا بعيداً، في مكان ما.

كان ذلك غير مفهوم داخل عقلها الضحل، حيث تنام، في عمقه، القوّات الحيّة، كان الأمر بالنسبة إليها مبهماً، ولم يثر فيها أدنى اهتمام. لم تشعر بأنها تفكّر، إلا بعد أن أصبحت تحبّ.

في الماضي، عندما كان يغادرها «جاك» للالتحاق بـ«باتنة»، كانت تفكّر في الذي يفعله، وأين يعيش، وهل يشاهد نساء أخريات: «روميات» يخرجن بدون خمار، ويرتدين لباساً من الحرير وقبّعات، كاللواتي يزرن المواقع الأثرية، وقد بدأت شعلة خافتة من الغيرة تشتعل في قلبها، ولكن، منذ أن رحل «جاك» إلى المنطقة الوهرانية البعيدة عاشت «ياسمينة» معاناة كبيرة، وقد بدأت تنبُّؤاتها تتأكّد.

أحياناً، وهي قابعة في عزلتها، كانت تردِّد بعض الأغاني الحزينة التي تحبّها، وتأخذ في البكاء زفراتٍ، تمزُّقها مقاطعُ كئيبة من أغانيها، طالبةً من «مبروك» العزيز، بأرقّ الأسماء التي تعوَّدت أن تسمِّيَه بها، متوسِّلة إليه أن يعود، كما لو أنه يستمع إليها.

كانت أمّيّة، ولم يكن بإمكان «جاك» أن يكتب لها رسالة، ذلك لأنها لا تتجرّأ على إظهار رسائل الضابط من أجل ترجمتها لها.

بقيت بدون أخبار عنه.

في يوم أحد، وبينما كانت تحلم حزينةً، لاح لها، من بعيد، فارس من أهالي البلد قادماً من «باتنة»، ممتطياً صهوة حصان جموح، رماديّ اللون، مرتدياً زيّ جنود الأهالي «السباهي»، دفع بحصانه حيث مجرى الوادي، يبدو أنه كان يبحث عن شخص معيَّن، وعندما لمح الفتاة سألها:

ألست «ياسمينة» بنت الحاج سليمان؟

ـ من أنت؟ وكيف عرفتني؟

ـ هذه أنت إذاً! أنا «شريف بن علي الشعانبي»، ملازم في صفوف «السباهي» وصديق «جاك». ألست أنت عشيقته؟

حاولت «ياسمينة» الفرار منه، بعد أن أصابها الذعر من اكتشاف أن سرها أصبح في حوزة مسلم، غير أنه أمسكها من معصمها، وقد أعادها بقوّة إلى مكانها.

ـ إلى أين تذهبين يا بنت الحرام؟ قطعت كل هذه المسافة الطويلة بحثاً عنك، ثم تفرّين مني؟

حاولت، عبثاً، التخلُّص منه، ولكن دون جدوى.

ـ دعني وشأني! لا أعرف أحداً! ولم أكن عشيقة أحد!

ـ بلى! كنت عشيقته يا... بنت الحرام! من أجل هذا سأقطع رأسك، رغم أن «جاك» بمثابة أخ لي. تعالي، هناك، في عمق «الوادي»، لا ينبغي أن يرانا أحد. لديّ رسالة من «جاك» إليك، وسوف أقرؤها عليك.

صفَّقت فرحاً.

طلب منها «جاك» أن تضع ثقتها في «الشريف»، وأنه إذا حدث لها أيّ مكروه يمكنها أن تتَّصل به، كما كتب لها أنه لا يفكِّر إلا بها، وأنه سيبقى لها مخلصاً دائماً، وقد أنهى رسالته بالقسم على أنه يحبّها، وأنه لن ينساها على الإطلاق، وأنه سيعود يوماً ليأخذها معه.

... قَسَم جميل، عزم حتميّ لشاب، لكن الزمن يعمل على محوه وفنائه، بسرعة، كما باقي الأشياء.

ناشدت «ياسمينة» «الشريف» الردّ على «جاك»، الذي لا تزال تحبّه، وأنها ستبقى، بدورها، مخلصة له ما دامت على قيد الحياة، وستبقى له العبد الخاضع والمحبّ، وأنها تودّ لو تكون الأرض التي تطأها قدماه.

ابتسم شريف، وقال:

ـ لو كنت تحبّين مسلماً لكان تزوجَك حسب القانون، ولما

كنت، هنا، تبكين.

ـ «مكتوب»!

امتطى الضابط جواده الرمادي، وقد خلَّفَ وراءه سحابة من الغبار.

كان «جاك» يخشى إثارة انتباه سكّان «الدوّار»؛ لهذا أرجأ، طويلاً، إرسال خطابه الثاني لـ«ياسمينة». وعندما رغب في الكتابة إليها، بلغه أن الشريف انتقل إلى مركز في الصحراء.

شيئاً فشيئاً، وبعد يأس الساعات الأولى، رفَّ جناح السلم على قلب «جاك».

في «القصر» الوهراني، حيث يقيم، عثر على رفاق فرنسيين مميَّزين جدّاً ومثقَّفين، أحدهم يملك مكتبة واسعة الأرجاء، حيث شرع «جاك» في المطالعة ودراسة بعض المسائل التي كانت تبدو غريبة جدّاً بالنسبة إليه، وبدأت تنفتح أمامه آفاق جديدة.

بعد ذلك غَيَّرَ منصب عمله إلى «جيريفيل»(البيض)، وتعرَّف هناك بفتاة إسبانية جميلة جدّاً، وأصبح عاشقاً لها.

وهكذا، تراجعت صورة «ياسمينة» الفاتنة إلى أمواج ذكرى بعيدة، حيث الضباب الذي ينتهي إلى الغرق في ظلمات النسيان الأبدية.

أبدى «محمد الأعور»، في الأخير، استعداده لتسديد نفقات

العرس، وهكذا تَمَّ تحديد موعد جدّ قريب.

غير آبهة، استسلمت «ياسمينة» للقدر...

بغريزة العاشق المتيَّم، ساورها إحساس قويّ بأن «جاك» نسيها، وقد أصبح كل شيء عندها سيّان.

وسرعان ما بدأ يقلقها هذا الزواج، فقد كانت تعلم جيّداً تمسُّك شعبها بتقاليده، وحتى هي تتوقّع غضب زوجها عندما يكتشف فقدان عذريّتها.

كانت جدّ متأكِّدة من أنها ستصبح زوجة «القهواجي» الأعور، حتى وقع ـ فجأةً ـ نزاع مصالح بين «الحاج سالم» و«الأعور».

بعد أيّام، علمت «ياسمينة» أنها ستتزوَّج من رجل لم تشاهده سوى مرّة واحدة، إنه السباهي «عبد القادر بن سماعيل»، وهو شابّ وسيم، عُرِف بتهوُّره ومراسه الصعب، وقد كان تقديره سيّئاً من جهة مصلحة عمله، جرّاء سلوكه، ولكنه كان محترماً من رؤسائه، بسبب شجاعته وذكائه.

أحبَّ «ياسمينة»، فقد كانت جميلة، وهي في عنفوان الخامسة عشرة.. لقد منح «الحاج سالم» مبلغاً أكثر قيمةً من المبلغ الذي تعهَّد به الأعور، وهو ما أثلج صدر الشيخ، ودفعه إلى الموافقة على زواج ابنته من هذا الشخص المنحدر من أسرة عريقة في «قالمة»، رغم الضباب الذي شاب علاقته معهم عَقِب التزامه

بهذا الزواج.

استغرقت احتفالات الزفاف ثلاثة أيّام في «الدوّار» أوّلاً، ثم في المدينة. في «الدوّار» تم إطلاق بعض الطلقات من البندقية، كما استُخدِمت المفرقعات التي دفعت بالخيول المتضوِّرة جوعاً إلى الركض، تخلَّلتها صيحات يطلقها الرجال والخيول، في آن معاً.

في المدينة، رقصت النساء على وقع «البنادير»[1] و«الغايطة»[2] البدوية...ارتدت «ياسمينة» عدداً من الأقمصة الموصلية البيضاء ذات الأكمام الطويلة، والأقمصة القصيرة إلى الرسغ، و«قفطاناً» مخملياً مطرَّزاً بالذهب و«قندورة» من الحرير الوردي، وقد غطّت شعرها بـ«شاشية»[3] مدبَّبة كرزية وخضراء، مزركشة بحليّ من الذهب والفضة.

كانت تجلس على الكرسي الوحيد في القاعة وسط النساء، بينما كان الرجال يمزحون في الشارع، وعلى مصطبات مقاهي المور المقابلة.

عن طريق النسوة علمت «ياسمينة» برحيل «شريف الشعانبي»، وهكذا تلاشى بصيص الأمل الذي كانت تحتفظ به، سوف لن

1- آلة موسيقية تشبه الدفّ، وقد وردت الكلمة، في النص، بالعربية.

2- آلة موسيقية ذات صوت قوي تشبه الناي، مع الملاحظة السابقة نفسها.

3- قبّعة صغيرة بيضاء اللون، يرتديها السكان البدو في الجزائر، مع الملاحظة السابقة نفسها.

تعلم أيّ شيء عن «جاك» مستقبلاً.

في المساء، عندما كانت تجلس وحيدةً مع «عبد القادر»، لم تكن تتجرَّأ على رفع عينيها أمام زوجها، كانت تفكِّر، مرتعدة الفرائص، في غضبه الوشيك، وفي المصيبة التي ستقع على رأسها، هذا إذا لم يسارع في قتلها توّاً.

كانت تحبّ، دائماً، «الرومي»، واستبدال السباهي بالأعور لم يكن يعني لها شيئاً، بالعكس، فقد عُرِف عن الأعور أنه كان رجلاً طيِّباً، في حين كانت لـ«عبد القادر» سمعة الرجل العنيف والشرس.

عندما علم بما كانت تحاول أن تخفيه، استشاط «عبد القادر» غضباً، هو أكثر ضراوة من وقع حبِّه الشديد لها، وشرع في ضربها بوحشية، ثم أمرها بكشف اسم عشيقها.

ـ كان جندياً مسلماً منذ مدة طويلة... وقد ذهب...

مرتاعةً من تهديد زوجها، أبلغته اسم الملازم الأوّل «الشعانبي»؛ فما أهمّيّة ذلك، ما دام أنه غير موجود؟ لم تكن ترغب في قول الحقيقة، فالقول إنها كانت عشيقة «رومي» كان سيصعِّد من خطيئتها في نظر «عبد القادر»، غير أن رغبة «السباهي» كانت أكثر قوّة من غضبه.

بعد كلّ شيء، من المؤكَّد أن الملازم الأوَّل لم يتحدَّث إلى

أحد، وقد سافر، ولا يمكن ـ من ثَمَّ ـ لأيّ شخص أن يكتشف سرّها.

احتفظ عبد القادر بـ«ياسمينة»، ولكنه أصبح يزرع الرعب في «دوّار الحاج سليمان»، حيث كان يطالب بالمال، قسراً، من عمّه الذي كان، بدوره، يخشاه، ومن ثَمَّ أحس بالندم جرّاء عدم منح ابنته إلى «محمد الأعور» الرجل الهادئ.

«ياسمينة» الحزينة الصامتة دوماً، كانت تمضي اليوم كله منهمكةً في خياطة قميص غليظ من الصوف، تتولّى «دوجة» عمّة «السباهي» العجوز بيعه في سوق «مزابي».

كانت هناك في المنزل، كذلك، أخت «عبد القادر»، والتي كانت مقبلة على الزواج من أحد أصدقاء أخيها.

عندما لا يكون «السباهي» في حالة سُكْر كان يحمل لزوجته هدايا ولباساً داخلياً وحتى حليّاً، وفواكه وحلويات... ولكن، في مرات أخرى، كان «عبد القادر» يدخل إلى منزله، وقد لعبت الخمرة برأسه، فيقوم بضرب زوجته دون داعٍ، أو سبب.

لم تكن لتكترث بالمداعبة ولا بالضرب، كانت تحتفظ دوماً بصمتها، تشعر بالاختناق، وهي بين أربعة جدران بيضاء، داخل الحوش الموريسكي، حيث تَمَّ إحكام الإغلاق عليها، كانت تتحسَّر، بمرارة، على مساحة الحرّيّة التي كانت تتمتَّع بها بين

السهل والمواقع الأثرية الضخمة المهدّدة، و«الوادي» المتوحِّش.

شعر عبد القادر أن زوجته لا تحبّه، وهو ما كان يثير سخطه، وسرعان ما يشرع في ضربها بوحشية.

غير أنه ما إن يشاهدها وهي تجهش بالبكاء، حتى يضمّها في أحضانه، ويحاول، عبثاً، مواساتها.

بتحدٍّ وإصرار، استمرّت «ياسمينة» في حبّ «روميّها مبروك»، حيث كان تفكيرها يحلِّق طائراً إلى الجنوب الوهراني الذي لم تكن تعرفه أبداً، وحيث كانت تعتقد انه لا يزال فيه.

كانت تتساءل، بقلق، إن كان «مبروك» سيعود، وعندما تتأكّد أن لا أحد يشاهدها، تشرع في البكاء، في صمتٍ يمتدّ طويلاً.

منذ مدّة نسي «جاك» حلم الحبّ الذي صنعه، والذي لم يدُم، فجر حياته، سوى صيف واحد، في سهل «تيمقاد» الخالي.

لم تكد تمرّ سنة واحدة على زواجها، حتى حُكِم على «عبد القادر» بعشر سنوات سجناً، مع الأشغال الشاقّة، عقب استخدامه وسيلة عنف مع مسؤول له خارج العمل.أخته التحقت بزوجها في الجنوب، أما الجدّة العجوز فقد وافتها المنيّة.

بقيت «ياسمينة» وحيدة، ودون أي مورد رزق.

لم تكن ترغب في العودة مطلقاً إلى قبيلتها.

كانت تحتفظ بهذا الطبع الغريب، الذي كان مزيجاً من الغموض

والصمت، وأصبح ملازماً لها منذ رحيل «جاك». لم تكن ترغب في زواج آخر ما دامت أرملة، كي تصبح حرّة، وتترقّب «مبروك» في شوق.

كان من الممكن أن يخفّف الزمن من جراح قلبها هي أيضاً، لكنها لم تعثر على أي بديل لحبّها، واستمرّت في حبّ الغياب، الذي، منذ مدّة، تضاءل أمل رؤيته.

عندما أحسّت أن آخر النقود التي تركها «عبد القادر» قد نفدت، وضعت أسمالها في حقيبة، وأعادت المفتاح إلى صاحب المنزل.

عند هبوط الليل، توجَّهت نحو حيّ الزنوج، بعيداً عن «باتنة» بنحو خمسمئة متر، وهو عبارة عن أرض شاسعة، حيث يوجد المسجد.

هذا الحيّ عبارة عن تكدُّس غير متجانس لأكواخ بُنِيت من الخشب أو من تراب مدكوك، متّسخة وشبه مهدَّمة، تسكنها مجموعة من بنات الهوى: زنجيّات، بدويّات، موريّات، يهوديّات ومالطيّات، يعشن مكدَّسات في خليط، مع أنماط شتّى من أشخاص مشكوك، نسبيّاً، في أمرهم، قوّادين، معظمهم من ذوي السوابق العدلية.

هنا، توجد مقاهي «المور»، حيث ترقص النسوة ويغنّين حتى

العاشرة ليلاً، وعندما توصد الأبواب يدخِّنون (الكيف) طوال الليل، هذا هو مكان اللهو لعسكر الثكنة.

منذ أن بقيت «ياسمينة» وحيدة تعرّفت بامرأة «موريّة» تعيش في الحيّ الزنجي بصحبة زنجية من «وادي غير».

«زهرة» و«سمرة» كانتا تعملان في ماخور يملكه شخص يدعى «علي فرانك»، يُقال إنه مسلم تونسي، غير أن لقبه يوحي بأصل آخر، وهو ذو سوابق عدلية، ومُراقَب من طرف الشرطة.

كثيراً ما كانت المغنِّيتان تنصحان «ياسمينة» بمقاسمتهما الغرفة، تحاولان أن تلمعا في عينيها مزايا ظروفهما.

وعندما شعرت بنفسها وحيدة، قد تَمَّ التخلّي عنها، التحقت بصديقتيها اللتين رحَّبتا بها في سرور.

في هذا المساء، ظهرت «ياسمينة» في المقهى، وشرعت في الغناء، داخل قاعة منخفضة ممتلئة بالدخان، وأرض تعشِّش فيها العقارب، ذات تربة مكدَّسة، وقد غطّت جدران الجير البيضاء كتابات ورسومات من صنع الزبائن، تنحو معظمها إلى البذاءة والفحشاء. ثمة طاولات ومقاعد اصطفَّت على طول الجدارين المتوازيين، وقد تُرِك وسطَ القاعة حيّز واسع نسبياً. في عمق القاعة منضدة خشبية تُستخدَم كطاولة شراب، في الخلف ثمّة ما يشبه المنصّة، هي من تربة مكدّسة، مغطّاة بحصير مستعمَل.

المغنّيات كنّ يجلسن القرفصاء هنا، وكان عددهن سبعاً: «ياسمينة»، وصديقتيها، وبدويّة تدعى «حفصية»، و«عنّابية»، و«عائشة»، ويهوديتين: «ستيترة» و«رحيل». المغنّية الأخيرة أصلها من «الكاف»، وكانت ترتدي قفطان الراقصات التونسيات، حسب الأزياء المصرية: سروالاً أبيض عريضاً، وسترة صغيرة من الحرير الملوّن، وقد ربطت شعرها المتموِّج بعمامة حمراء عريضة فقط، كانت ترتدي حذاءً صغيراً من الساتان الأبيض، بدون جزئه العلوي، تقريباً، وبكعب مرتفع جداً. يحملن جميعهن حلياً من الذهب، ويضعن حلقات ثقيلة في آذانهن، بينما كانت كلٌّ من البدوية والزنجية ترتدي ثوباً صحراوياً، وهو نوع من الخُمر، طويل بلون أزرق غامق، مشبوك على الأكتاف على شكل جلباب، وقد زيَّنتا رأسيهما بشكل معقَّد: ضفائر كبيرة من الصوف الأحمر، وقد طُويت مع الشعر على الصدغين، ومناديل متقابلة، وحلي موثّقة بسلاسل صغيرة.

عندما كانت تهمّ إحداهن بالرقص، في القاعة، بين الجمهور، تشرع الأخريات يغنّين على المصطبة، يصفِّقن بأياديهن، ويضربن على الطبل، فيما يقوم غلام بالعزف على الناي العربي، ويتولّى أحد اليهود الضرب على آلة تشبه الماندولين.

كانت الأغاني والحركات الفاتنة للرقص تستفزّ ـ شيئاً فشيئاً ـ

المتفرِّجين الذين كان عددهم كبيراً هذا المساء.

عبارات المزاح والاستحسان كانت تمطر عليهن بالعربية وبالفرنسية، وبلغة أخرى، هي خليط بين اللغتين.

ـ كم أنت مكتنزة أيّتها الصبيّة! قال أحدهم وهو ابن «بالفيل»، تَمَّ نفيه إلى إفريقيا، يبدو انه أُعجب بـ«ياسمينة»، عندما نزلت، بدورها إلى القاعة هادئة ومنضبطة كعادتها، مغلقة في استسلامها وفي حلمها، كانت ترقص لهؤلاء الرجال، الذين ستكون فريسة لهم، عندما تغلق الحانة أبوابها.

ثمّة شرطي «سباهي» من البلد، تعرَّف بـ«ياسمينة» من خلال معرفته بـ«عبد القادر بن اسماعيل» وعندما شاهد «ياسمينة» صاح:

هذه أنت! زوجة «عبد القادر» الرجل المعروف! امرأة في العلبة!

وفي المساء، التحق بـ«ياسمينة»، في خلوتها المظلمة التي تُستَخدم غرفةً لها...

طلع بدر التمام، هناك، في الشرق خلف المسنَّنات المعتمة لجبال الأوراس، بريق من الزرقة يتسرّب إلى الجدران والأشجار، يلقي بظلال عميقة على جميع التجاويف والخبايا التي تشكّل لججاً.

يلوح المسجد وحيداً وسط أرض شاسعة وقاحلة، يلمس السور الرمادي للمدينة وباب «لامبيز»، من جهة، ومن جهة أخرى أولى منحدرات الجبل، بدون أناقة وبدون أبَّهة، بدا شفّافاً على الضوء السحري للقمر، يستحمّ في شعاع لا محدود.

ثمّة أصوات صاخبة «للبنادير» و«القصبة»[1] بجوار الحيّ الزنجي، تدوّي أمام مقهى «علي فرانك»، حيث كانت تجلس امرأة على مقعد خشبي، واضعةً مرفقيها على ركبتيها، ورأسها بين يديها، تترصّد المارّين، ولكن، في عدم اكتراث، يوشك أن يتحوّل إلى ضجر.

كانت شديدة النحافة، وكانت وجنتاها داكنتي الاحمرار، وعيناها غائرتين تتلألأان بغرابة، وشفتاها الهزيلتان مطبقتين في ألم، كانت تبدو أكبر بعشر سنوات، تلك الفاتنة النديّة، البدوية الصغيرة القادمة من أطلال «تيمقاد».

وهكذا، في خضمّ ذلك القناع من الألم، الذي يوشك أن يبلغ الاحتضار، لم يعكس وجودها منذ ثلاث سنوات، سوى ظلّ من الحزن الضارب في العمق، ومع ذلك لا تزال جميلة، ذاك الجمال السقيم الذي يلمس القلب.

كان صدرها يرتجّ ألماً، بسعال طويل ورهيب، يصبغ اللون

1- آلة موسيقية تشبه الناي، يستعملها البدو في أغانيهم، وردت، في الأصل، بالعربية.

الأحمر على منديلها.

الأسى، والكحول، وألف عنصر مضرّ في الوسط الذي أصبحت تعيشه، كلّه أَثّر في صحّتها الجيّدة التي كانت تنعم بها في الهواء النقي للسهل.

خمس سنوات بعد رحيل «جاك» إلى الجنوب الوهراني، دفعته تقلُّبات الحياة العسكرية على المجيء إلى «باتنة».

قدم صحبة زوجته، الشابة الباريسية الرقيقة والجميلة، كان قد تعـرّف إليها وأحبَّها في الشاطئ اللازوردي، ذات ربيع، عندما كان مريضاً، وقد جاء إلى مدينة «نيس» في عطلة نقاهة.

كان «جاك» يتذكَّر جيّداً ما يسمّيه، الآن، «حكاية حبّه البريء» مع البدويّـة، حتى أنه كان يتحدّث مع زوجته في هذا الشأن. ولكن هذا كله كان بعيداً في الزمن، والشخص الذي أصبح عليه الآن، لا يشبه، إلا قليلاً، الضابط الشاب آنذاك.

ـ كنتـ إذاًـ مراهقاً، حالماً ومندفعاً!

ـ لو تعلمينـ عزيزتيـ يا لها من أفكار حمقاء! كنت سأترك كلّ شيء من أجل هذه المتوحِّشة الصغيرة. لو تركت نفسي أسيرَ هذا الجنون، ماذا كنت سأصبح؟ الله وحده يعلم!

آه! كيف أصبحت الآن! هذه الأفكار حمقاء، ذاك الملازم الصغير المخلص والمتحمِّس في البدايات!.

لم يفهم كيف أمكن لهذا الشكل الأوّلي من الأنا الواعية أن يكون أفضل وأجمل من الأنا الثانية التي تتّصل بالعقل المعاصر المزهو، الأناني والملوم، والتي تغلغلت داخله، رويداً رويداً؛ ذلك أنه، في هذا المساء، ولأنه خرج مع زوجته التي لم تجد، في الشوارع الأربعة أو الخمسة الطولية للمدينة، أيّ شكل من الإغراء لها، قال «جاك»:

ـ تعالي أرشدك إلى الموقع الذي يتّخذه العسكر جنة، وخاصّة، الكثير من التسامح، ذلك أن العرض يبدو لك، أحياناً، وكأنه طبيعي، ينحو إلى الفجاجة.

في أثناء الطريق التقيا بأحد أصدقاء «جاك»، بصحبته زوجته هو أيضاً، فكرة التوجُّه إلى الحَيّ الزنجي تسعدهما، وسرعان ما سلكوا الطريق المؤدِّية إليه.

منشغلاً بإرشادهم إلى الطريق، كان «جاك» قد سبقهم قليلاً، تاركاً زوجته تشبك ذراع صديقتها.

وبينما كان يمرّ أمام مقهى «علي فرانك» قفزت «ياسمينة» فرَحاً، وصاحت:

ـ «مبروك»! «مبروك»! أهذا أنت!

لم يكن «جاك» يحتفظ، بدوره، سوى باسمها «ياسمينة»، وقد اكتسح قلبه برد جليدي كبير، لم يعثر على كلمة واحدة

يخاطب بها تلك التي اغتبطت فرحاً لعودته، ثم لم يلبث أن شعر بالندم للفكرة السيِّئة التي حملته على مرافقة زوجته إلى هنا. يا للهول، عندما تعلم هذه المخلوقة الضائعة في الفجور أن لا أمل لها فيه!.

ـ «مبروك»! «مبروك»! ألا تعرفني؟ أنا «سمينة»! انظر إليّ إذاً! عانقني! آه، أعلم جيّداً أنني تغيّرت! كل هذا سيمضي، سأتماثل للشفاء من أجلك، ما دمت هنا، بجانبي!

فضَّل إنهاء حديثهما على التوّ، ليقطع حبل هذه المغامرة المزعجة، يملك، الآن مستوًى مقبولاً في اللغة العربية، سبق وأن علَّمته منها الألفاظ الأولى، قال لها:

ـ اسمعي... يجب ألّا تعتمدي عليّ، كل شيء انتهى بيننا، أنا متزوِّج الآن، وأحبّ زوجتي، اتركيني، ولا تبحثي عن لقائي، حاولي أن تنسيني، هذا أفضل لنا نحن ـ الاثنين.

بعينين فاغرتين، كانت تحدِّق فيه بدهشة. هاهو الأمل الأخير، والذي كانت تعيش من أجله قد تبدَّد.

لقد نسيها، تزوَّج، ويحبّ «الرومية» زوجته! أمّا هي، التي كانت متيَّمة بحبّه فلم يبق لها سوى أن تنام في زاوية ما، وتموت مثل كلب ضائع.

في عتمة روحها، استبدَّ بها التمرُّد ضدّ الظلم المجحف الذي

طالها.

اعتدلت، على حين غرة، مهدِّدة بجسارة:

ـ لماذا ـ إذاً ـ جئت تبحث عني في عمق «الوادي» في «دوّاري»، حيث كنت أعيش في سكينة وطمأنينة مع غنمي وماعزي؟ لماذا لاحقتني؟ لماذا استعملت كلّ أنواع الحيل والسحر لإغوائي، ثم إفقادي عذريّتي؟ لماذا ردَّدت معي، بخداع، الكلمات التي يقولها من يرغب في اعتناق الإسلام؟ لماذا كذبت عليّ، ووعدتني أن تعود يوماً لتأخذني معك، وإلى الأبد؟ آه! أحمل معي دائماً، بين تمائمي، الرسالة التي جاءني بها الملازم الأوَّل «الشعانبي»!

ثم سحبت من بين ثدييها رسالة قديمة مصفرّة وممزَّقة، لوَّحت بها كبرهان قاطع.

ـ نعم أيّها «الرومي» الكلب، ابن الكلب، لماذا تأتي في هذه الساعة، أنت وزوجتك الملعونة، لتحتقرني، إلى هذا الماخور، حيث رميتني، لتتخلّى عني إلى أن أموت؟

كان يقطع حديثها شهيق وسعال أبحّ وأجشّ، ثم رمت على وجهه منديلها المبلَّل بالدم:

خذ، يا بن آوى، اشرب دمي! اشرب، ولتكن سعيداً أيّها المجرم!

أحسَّ «جاك» بالألم، شعر بخزي وندم شديدين أمام هذا الشقاء، ولكن، ماذا بوسعه أن يفعل الآن؟ بينه وبين البدوية هوّة سحيقة، أعمق من أيّ وقت مضى.

لمواساتها ولمحاولة التخلُّص من هذه المخلوقة البائسة إلى الأبد، كان يعتقد أن قليلاً من الذهب كافياً لـ...، ثم أخرج كيساً، وقال:

ـ خذي... أنت فقيرة ومريضة، يجب أن تُعالَجي، خذي هذه النقود القليلة...ووداعاً.

كان متلعثماً وخجلاً ممّا تجرّأ على فعله.

حدقت فيه «ياسمينة» لدقيقة واحدة، كما في السابق، هناك في «الوادي» الجاف لـ«تيمقاد»، في ساعات الوداع الممزّقة، ثمـ فجأةً ـ أمسكته من معصمه، ورمت بالنقود الصفراء على الأرض.

ـ كلب! جبان! «كافر».

لوى «جاك» رأسه، ومضى ملتحقاً بجماعته التي كانت تنتظره غير بعيد، وقد حجبت عنهم الأكواخ الرؤية.

تهالكت «ياسمينة» على مقعدها، وقد أرهقتها الشهقات المتشنِّجة. هرعت «سمرة» الزنجية لمساعدتها، ثم شرعت تلتقط نقود الضابط الذهبية، ثم احتضنت، بذراعيها السوداوين،

صديقتها «ياسمينة».

ـ سمينة، أختي، روحي، لا تبكي... كل هؤلاء «الروميين» كلاب، أبناء كلاب. ولكن، بهذه النقود التي أعطاك إيّاها، سنشتري فساتين وحلياً ودواءً لصدرك.فقط، يجب ألّا نفشي الأمر لـ«علي»، سيستولي، دون شكّ، عليها.

ولكن، لا شيء يواسي «ياسمينة».

توقَّفت عن البكاء، كئيبةً، خرساء، استعادت قواها في وضع انتظار: انتظار ماذا؟ ومن؟

لم تكن «ياسمينة» تنتظر سوى الموت مذعنةً لمصيرها.

هذا ما كان «مكتوباً» عليها، ولم يكن ينبغي عليها أن تحزن. يجب أن تترقَّب النهاية ببساطة. كل شيء بدأ ينهار عليها، ومن حولها، لم يعد هناك أحد له السلطة في ملامسة قلبها: لإسعاده، أو لإيلامه.

وجعها أصبح وجعاً مطلقاً. كانت تتألّم ـ خاصّة ـ لكون «جاك» حيّاً وقريباً منها. كان قريباً جدّاً، ولكنه، في آن واحد، بعيد، بعيد جداً!

آه! كم كانت تفضِّل لو أنه مات، يرقد هنالك، في مقبرة «الروميين» خلف باب «قسنطينة»!

كان يمكنها ـ في اللاشعور ـ أن تعيش هنا، ومن جديد،

ساعات الماضي الجميلة، ساعات الانتشاء، والحبّ الذي عاشته في «الوادي» الجاف. هناك، حيث كان بإمكانها أن تتذوَّق فرحاً رقيقاً وكئيباً، عوض إحساسها بالاضطرابات المقيتة للساعة الآنيّة، خاصّة وأنه لم يكن يحبّ امرأة أخرى، امرأة «رومية»!

تشعر أنها كانت ستموت، قبل اليوم، بألم فظيع، لولا إصرارها على أمل لقاء «جاك» ذات يوم. وحدها، الإرادة المطلقة في الحياة، على أمل لقائه، هي التي وهبتها قوّة مزيَّفة لمقاومة مرض السلّ الذي أنهك جسمها.

إلى الآن، لم تعد «ياسمينة» سوى خرقة من اللحم، أنهشها المرض والموت، بلا مقاومة. لقد تحطّمت في لحظة واحدة دوافع الحياة داخلها.

لم يكن هناك أي تمرّد لروحها التي انطفأت شعلتها، أو تكاد. كان مكتوباً، وليس ثمّة دواء لشيء كان مكتوباً.

حوالي الساعة الحادية عشرة، مرّ أحد رجال «السباهي» بالمكان، وكان في إجازة، استغرب وجودها هنا، مسندةً ظهرها إلى الحائط، ذراعها متمايل، ورأسها متدلّ.

ـ إيه «سمينة»! ماذا تفعلين هنا؟ هل أصعد؟

ولأنها لم تجبه، عاد الجندي الأحمر الوسيم، بخطاه، إلى الخلف.

وإذاً! قال متفاجئاً: بمَ تفكِّرين يا بنتي؟ أم أنك ثملة؟

أمسك يد «ياسمينة» التي سقطت فوقها.

اعتدل المسلم في الحال، وقد بدا شاحباً، ثم قال:

ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله!

لقد ماتت «ياسمينة» البدويّة.

الرائـد

كان كل شيء في الجزائر يمثِّل اكتشافاً جديداً له، وكان سبباً في تشويش غَمَرَ كيانه، يوشك أن يتحوّل إلى قلق. الشمس كانت ساطعة، والسماء صافية، النسمات التي كانت تهبّ رتيبة، تدفع إلى اللامبالاة، وإلى حالات الشبق البطيئة.

خطورة الشعب الذي يرتدي اللباس الأبيض، والذي لا يمكن أن يتسلَّل إلى وجدانه غطاء نباتي كثير الاخضرار، يصطدم مع الأرض الممتلئة بالحجارة ذات اللون الرمادي أو تلك المائلة إلى الاحمرار.

جفاف كئيب، قحط جليّ، وبعض الأشياء غير المحدَّدة،

والمزعجة والفاتنة، تنبعث من مصدر لا يعلمه، كل هذا هَزَّ كيانه مفجِّراً فيه ينابيع شعور، لم يشكّ أبداً، في وجودها.

وحده الواجب دفعه للمجيء إلى هنا، ثم إنه درس الطبّ الذي سيسمح له، من خلال ممارسته إياه كمهنة، أن يعيل أمّه الكفيفة، وأختيه وأخاه الأصغر الهزيل الجسم. كان مستسلماً للأمر الواقع، خاضعاً للضرورة التي أملاها واقعه البائس، وهو قادم إلى هذا البلد، الذي لا شيء يجذبه نحوه.

و هكذا، ومنذ تعيينه، لم يكن يرغب في قراءة أو معرفة أي شيء عن هذا البلد الذي فُرِضَ عليه أن ينقل إليه حياته الصامتة والهادئة، وحلمه الكئيب والضيّق.

عند وصوله، كان يجب أن يصغي إلى تحذيرات رفاقه الجدد الذين احتفوا به، والذين أصبحوا يتهكّمون عليه، كأنهم أوصياء عليه، محتقِرين مرحلة شبابه التي لا تتميّز بأية خبرة، كان منشغلاً، خاصّة، بردود أفعالهم وباستغرابهم، غير أنه كان يصغي إلى انتقادهم، وتظلّمهم.

لا وجود هنا لشيء اسمه مجتمع، لا يمكنك أن تفعل أيّ شيء: رتابة مملّة، بلد بلا سحر، الجزائريون أفظاظ، لا يهتمّون إلا بالربح، الأهالي منفِّرون، مخطئون، متوحِّشون، لا يقبلون النقد، ومثيرون للسخرية.

لم يكن يكترث لكلامهم، لم يحصل من رفاقه، هؤلاء الذين فُرِض عليه أن يعيش بينهم، على أية معلومة تهمّه وهو يكتشف عالماً غريباً عنه.

هاهو ابن جبال الألب المشجّر، واسع الاخضرار، بآفاقه المحدّدة، واضحة المعالم، يلج يوماً ما، فجأة، السهوب الكبرى الشاسعة التي يشبه بعضها بعضاً، والتي لاشيء فيها يثير الانتباه.

إحساسه، في البدء، كان مزيجاً من الانزعاج والقلق، ثم بدأ، بعد ذلك، يشعر بأن هذا الأفق المطلق اللامحدود يتغلغل في داخله، أحسَّ ـ فجأةً ـ أن حلمه أخذ في التوسُّع والامتداد ليتحوَّل إلى هدوء آسر، كما الصمت المحيط بالمكان، وها قد اكتشف بهاء هذا البلد ورونقه.

وحده الضوء الساطع الذي يشيع الحياة في السهل الممتدّ والأرض البرصاء، القادر على أن يحطّم، مع كل لحظة، الرتابة. الشمس روح هذه الأرض القاحلة، كانت متألّقة وساحرة.. أوشك أن يهيم بها.

ثمّة كثبان رملية بلا لون، متراصّة، متموّجة، تتغيّر ألوانها في كلّ ساعة، متعرّضة لكافة التحويرات التي تحدثها الشمس، ومع ذلك فهي جاثمة بلا حراك، وكأنها تنام على حلم أزلي، تحاصر «القصر» عديم اللون، حيث تمضي القبب الصغيرة، التي لا

تحصى في إرغائها اللامحدود.

تحيط بالشوارع الصغيرة الملتوية منازل بُنِيت من جبس قديم، تتقاطعها بنايات أثرية، مع الظلال الشاحبة لنخيل تسير نحو الأشياء، مذعنةً ـ هي أيضاً ـ للشمس، هناك مواقع صغيرة تفضي إلى مسالك صامتة تتفتّح، بشكل فجائي ومخيِّب، على الشساعة المتوهّجة للصحراء. هناك «برج» كلّه بياض ينتصب معزولاً بين الرمال والسطح، من خلاله، تلوح التموُّجات اللامحدودة للكثبان الرملية، ومن التجويفات العميقة، يلوح السواد المخملي للنخيل، تتجمّع، هنا وهناك، بقايا آبار عتيقة ورافد خشبي كبير، يرنو إلى السماء في منحنى ينتهي بحبل، كما خيط صنّارة صيّاد السمك. أعلى الرابية، قلعة رباعية الشكل، يحيط بها كلّ شيء من حولها، تبدو كبيرة الحجم، ببياض يقطع الصفاءات المحيطة، تتلألأ وسط النهار، عمياء، تحافظ مساءً، مع الغروب، على آخر الأشعة الحمراء، إنها منارة «زاوية سيدي سالم»، تختفي حولها بين الكثبان، قرى معزولة حزينة ومتهالكة، تمثِّل أسماؤها، بالنسبة إلى «جاك»، موسيقى غريبة عن أذنه: «البياضة»، «فم سحايم»، «واد اللندة»، «بير عراير».

أوّل إحساس له كان مؤلماً إلى درجة القلق، كان الأمر بالنسبة إليه بمثابة السجن داخل هذه الرمال الشاسعة، خلف كل هذه

الوحدة، الرمال التي اجتازها لمدّة ثمانية أيام، والتي كان يعتقد أنه يفهمها، وأنه شرع في حبها.

هاهو، الآن، أمام هذا الفضاء الذي يفصله عن «بسكرة»، حيث غادر آخر الوجوه المعروفة والمقرّبة منه قليلاً، كان يبدو له كل هذا جائراً، عدوانياً إلى حدّ يصل إلى اليأس، أو يكاد.

هناك نقيب واحد، وملازمان يرعيان شؤون الأهالي، وضابط القنّاصة، وملازم من فرقة «السباهي»، وهو شيخ عربي طاعن في السنّ، يشبه المومياء، قد نال منه العياء والتعب. هؤلاء هم رفقاؤه الجدد.

منذ وصوله إليهم أحسّ بانقباض في قلبه، بدا وكأنهم متضايقون لوجوده بينهم، وها قد وجد نفسه وحيداً مثيراً للشفقة، يساوره قلق هذا البلد الذي أصبح يفزعه الآن، كان صامتاً، لا يتكلَّم، يخضع دائماً، في علاقاته مع الناس، إلى أوّل انطباع حدسي يعتقد بصوابه، أصبح منغلقاً على نفسه، حكموا عليه بأنه شخص متكتِّم كثير الغموض. هذا الرجل الأشقر، صاحب العينين الزرقاوين، حيث نظره يبدو قد تحوَّل إلى داخله، قد أحسَّ بتفوُّقه عليهم بفضل ما يتحلّى به من ثقافة واسعة، في عمقه، وفي تربيته الرهيفة المعتنى بها.

أخذ يدرس، بوعي نزيه، اللغة ذات البحّة والعذبة للأهالي،

والتي راح، في الحال، يرتاح إلى نطقها، حيث اكتشف تماهيها مع أفق النيران الملتهبة والأرض المتحجّرة... وهكذا، كان يتحدّث إلى هؤلاء الناس الذين كانوا ينهضون مذعنين، يحيّونه عند مروره، بعيون منخفضة وقلوب مغلَقة بفظاظة.

ـ يجب على الأهالي، أينما كانوا، أن يقدّموا التحية لأي ضابط يصادفونه في طريقهم. قال النقيب «ماليت «بنبرة متجهِّمة، وقد استهلكته مهنة المداومة مثل «رزقي التركي»، ثم أردف:

الآن، أنت ملزَم بعدم ترك هؤلاء الناس يقتربون منك، وأن تدعهم، كما هم، في مكانهم، كما يجب أن تتعامل معهم، دائماً، بصرامة وحزم ودون كلل، وهي الوسيلة الوحيدة لتركيعهم والسيطرة عليهم.

كان النقيب «مالين» رجلاً صلباً وفاتراً، يتميَّز بخضوعه الأعمى للأوامر القادمة من قادته، لم يحدث له وأن تصرَّف، ولا مرّة بتلقائية، سواء أكان تصرُّفاً طيِّباً أم كان فظّاً، لم تكن له أيّة شخصية. لقد عاش، ومنذ خمس عشرة سنة، وسط الأهالي، يجهلهم ويجهلونه، كان عبارة عن آلة ضمن جهاز ضخم تحت السيطرة.

انتفض «جاك»، ومنذ الأيام الأولى لقدومه. كان يريد أن يكون هو نفسه، ويتصرَّف مع الأشياء وفقاً لما يمليه عليه ضميره،

الذي وضعه في جوّ من الانكسارات وخيبات الأمل، وكذلك الشكوك المتواصلة.

رفع النقيب كتفيه، وهو يخاطب مساعده بنبرة تهكّمية: «هاهو ذا مصدر جديد للمشاكل، الشخص الذي كان قبله كان رجلاً سكّيراً، وقد وصَفَنا بالأغبياء، أما هذا فقد جاءنا بِبِدَعه: يريد أن يقلب الأوضاع رأساً على عقب، يحاكم، ينتقد. أراهن أنه مُتخم بالأفكار الإنسانية، والاجتماعية، وأخرى غيرها، من النمط نفسه. من حسن الحظّ أنه طبيب فقط، وليس له أي دخل في الإدارة، ومع ذلك فهو مزعج حقّاً، يريد كل شيء، يبدو لي أن سابقه كان أفضل منه؛ على الأقل، لم يكن مزعجاً لنا، ثم لماذا يبعثون إلينا بهؤلاء الصِّبْية؟ لو كانوا ـ على الأقل ـ جزائريين!.

و هكذا، راح النقيب يبدي استياءه المطلق من الطبيب، وهو ما أحزن «جاك»؛ ذلك أنه، وإن لم يرضخ لحكم الناس، فسيعاني، حتماً، من حقدهم وضغينتهم.

أصبح ما يثير اشمئزازه أكثر، في علاقته مع الآخرين، شيء يشبه سوقيّتهم وهمّهم في الوجود، وفي التفكير والتصرُّف كما باقي الناس، والتشبُّه بالآخرين، وفرض نمط لكل واحد، في النظر الضيّق واللاشخصي. كانت تزعجه وتثير تقزُّزه هذه المصادرة لحرّيّة الآخر، وهذا التدخُّل في أفكاره وتصرُّفاته. ولأنهم كانوا

غير مرتاحين، لأنهم غير موجودين هم أنفسهم، فهم يحاولون أن يلغوا شخصيته الخاصّة به، ويعيدوا ترتيب أفكاره، ويعطّلوا استقلاليته في التصرُّف. شيئاً فشيئاً، ومن داخل الرقّة التي تغلِّف شخصيّته، اجتاحه غضب شديد، حقد ثم تمرُّد على الوضع! لماذا يستسيغ الاختلاف بين الناس؟ لماذا تحدوه الرغبة للدعوة إلى تفتُّح الفرد لتنمية التطوُّر الكلّي؟ لماذا لم تكن له أيّة رغبة في محو مميِّزات صورته ووأد طاقاته، في الدروب التي يرغب في السير وراءها، ولماذا لدى الآخرين اللاتسامح وهذا التبشير الجائر للرداءة؟

بسرعة، تطوَّر فكره وخاصّيّات شخصيته ضمن هذا الوسط الضيِّق، حيث كان يشاهد ـ مختصراً ـ كلّ الدناءات التي كانت فيما مضى تمتنع عليه، مشتَّتةً بين تقلُّب الناس وسكونهم.

ما هزّ كيانه، وأحدث اضطراباً في داخله، هو اكتشافه لهذا البلد المختلف عن بلده، والذي أثار فيه شعوراً بالاستقرار والهدوء.

في البداية، لم تكن لديه الرغبة في زيارة هذا البلد، حيث بقي، ولمدة ثمانية عشر شهراً، معزولاً كسائح، ليس لديه الفضول أو الاستعجال، كان يفضِّل اكتشاف التفاصيل بتروٍّ وهدوء.

شيئاً فشيئاً، ومن خلال مصادفات الحياة والجولات اليومية، دون قصد أو رسم هدف معيَّن، ثم من هذا الجمع التدريجي

للانطباعات، تكوَّنت أفكار في ذهنه، تتدفَّق وحدها، وبصفة طبيعية.. وهكذا، نظّم حياته بشكل يجعله يعاني قليلاً، ويفكِّر أكثر.

بعد يوم من وصوله، كان يجب عليه التوجُّه صباحاً إلى «بيرو آراب» (مكتب العرب) لزيارة المرضى المدنيين من الأهالي، كان يساعده شاب في الترجمة وممرِّض برتبة عرّيف.

في الممرّ الطويل والضيِّق، كان هناك أكثر من عشرين شخصاً من السّكان الأصليين، يجلسون القرفصاء، يترقّبونه بهدوء. عندما ظهر «جاك»، نهض المرضى واقفين، بعضهم وقف بصعوبة شديدة، وقد حيّوه تحيّة عسكرية.

رفعت النساء، اللواتي كان عددهن بين خمس أو ست، أياديهن المفتوحة خلف رؤوسهن المقوَّسة، وكأنهن يرجون العفو. لفت انتباهه، من خلال نظراتهن، نوع من الخوف والوجل، يوشك أن يكون توجُّساً وحذراً.

ثمّة مجموعة من الرجال يرتدون «برانيس» متربة، وجوههم سمراء بإشراقات تقاسيم مشعّة، وعيون متّقدة مغطّاة برداء متَّسخ وممزَّق، أما النساء فأكثر غموضاً: وجوههن مجعَّدة، خالية من الأسنان، يحملن على رؤوسهن مجموعة من الضفائر لشعرهن الأبيض المخضَّب بالحنّاء، وجدائل من الصوف الأحمر، حلقات

ومناديل، وجوه مغبرّة ومغلقة للفتيات، بتقاسيم صلبة قليلاً، ولكنها صافية ومتناسقة بلون داكن، عيون كبيرة تشعّ منها الغرابة والحذر. الكل مغطّى بملحفة زرقاء داكنة (سوداء تقريباً) مزخرفة، بحسب الزيّ القديم.

بنظراته المشعّة التي تنمّ عن طيبة قلب، كان «جاك» يتفحّص المرضى بلطف ورقّة، يأسى لبؤس هؤلاء الناس، وللآلام والمعاناة التي يكابدونها. فترة الزيارة كانت طويلة، لاحظ الاستغراب الساخر للعرّيف، فيما لم يحرِّك المترجم ساكناً.

في هذه الأثناء، رغم الموقف الجديد لهذا الطبيب، بالنسبة إليهم، لم يكن الأهالي مستعدّين لفتح قلوبهم أو استقباله. قرون من الحذر والاستعباد حالت دون ذلك.

شعر «جاك»، وهو يغادر المكان، أن المهمّة التي كان يريد، من خلالها، أن يصبح عاملاً متواضعاً، كانت ضخمة ومتعبة، بيد أنه لم يدع اليأس ينال منه، ذلك أنه، إذا استسلمت السواعد عاجزةً أمام المهام الموكلة إليها، وإذا لم يقم أيّ شخص بإعطاء المثُل، فسوف ينتصر الشرّ دائماً، ولن يُعثَر له على علاج، ثم إن «جاك» كان يؤمن بالقوة الحيّة للحقيقة، وبفضيلة الإخلاص للعمل.

تارةً في الحي، وأخرى في المستشفى، كان يلتقي بالوجوه

المغلقة والصلبة نفسها، وجوه تشبه ما يسجّله في وصفاته، خارجة من صلب الإنسانية، كان يؤلمه الفقر الذي كان يطبع حياتهم، العمل الآلي، وعدد قليل من الحركات والإشارات التي تتكرَّر دائماً، وإلى ما لانهاية. في البدء، كان مرجعها الخوف، لتتحوَّل ـ رويداً رويداً ـ إلى عادة تأصَّلت فيهم، خارج كل هذا؛ خارج الحياة الواقعية والحياة الشخصية.

لقد تركوا لهم شيئين اثنين: استهلاكهم المفرط للكحول، والبحث عن المتعة الآنيّة، بثمن زهيد، في الدائرة الضيقة للماخور، هناك حيث يمضون السنوات النشيطة لمسار حياتهم.

ثمانية أشخاص، بوجوه شاحبة، يجلسون على مصطبات من حجر أمام (كباريه) أو ما يشبه. ثياب فاتحة، ملطّخة، ممزَّقة، قذرة، ولكنها معطّرة بإفراط، لحوم رخوة مجرَّحة، قد استُهلِكت بقوّة، من أثر ملامسة الأيادي الفظّة، على الأفرشة الصوفية الممتلئة بالحشرات، وبقليل من النقود يرتمين مضطرّات في أحضان مُضجِرة غالباً، دون أيّة استجابة، ولا تأثّر. قارورات من السوائل العتيقة تنبعث منها حرارة مستعارة، سعادة مصطنعة لا يجدونها في ذواتهم: ذلك هو ركن الحياة الشخصية الذي يلجأ إليه هؤلاء الرجال الذين يبيعون حرّيّاتهم ـ آخر الحرّيّات الإنسانية ـ من أجل تأمين الخبز وفراش النوم، والذهاب أينما يشاؤون، واختيار

الخندق الذي يتجشَّمون به هول الجوع ونهش البرد.

اعتقد «جاك»، بسذاجة، إمكانية التخفيف من معاناتهم، بإعطائهم الأحاسيس التي تمنحها إيّاه حياتهم، اعتقد أن انتقادهم الدائم لمصيرهم هو نتيجة إحساسهم بوضعهم البائس، ثم استغرب من أنهم لا يتألّمون من هذا الواقع المعيش. «كلبة هذه الصنعة»، «لتذهب هذه الحياة إلى الجحيم». كانوا يقولون، ثم يردفون: «لا تزال أمامنا أيام أخرى نعيشها...» كانوا يعدّون أيام الشقاء، ثم يعودون من حرّيتهم، بعد نهاية «عطلتهم»، كانوا يجدِّدون العهد بلا تذمُّر، وإذا حدث- على سبيل المصادفة- أن ذهبوا خلال ستة أشهر متضايقين من حياة التشرُّد فإنهم يعودون ليسلِّموا أعناقهم، بإذعان، للنير. وقد كان «جاك» يؤنِّبهم على البقاء في هذا الوضع المهين، وعلى أنهم لا يشعرون بانحطاطهم وعبوديّتهم.

كان «جاك» يحلم بالدور الحضاري لفرنسا، كان يتصوّر أنه سيعثر، في «القصر»، على رجال واعين بالمهامّ المنوطة بهم، منشغلين بتحسين أوضاع هؤلاء الذين يحكمونهم. ولكن، على العكس، لقد اقتنع، بسرعة، بأن النظام القائم يعمل ما في وسعه على إبقاء الوضع كما هو عليه، بالامتناع عن استفزاز أي تفكير لدى الأهالي، وعدم بعث أيّة رغبة في نفوسهم، أو أي أمل في

حياة أفضل، لم يكن همّهم البحث عن تقريبهم منّا فحسب، بل العكس، كان همّهم إبعادهم ودفعهم للبقاء في الظل، في أسفل الدرك، وأن يتحوّلوا إلى حرّاس عليهم، لا أن يصبحوا مربّيهم.

ألم يكن ذلك طبيعياً، ما دام عنصرهم الطبيعي في الثكنة، ولم يعمل هؤلاء أبداً على التقرُّب قليلاً منهم، لتقريب الجانب الإنساني للجماهير في الأسفل، الحشد الذي لا شخصية له، ومادام أنهم كانوا قد تعوَّدوا أن يكونوا هنا لمنع أية رغبة أو توق للاستقلال أو الإبداع؟ ذلك لأنهم كانوا يخدمون، في وقت واحد، جميع مصالحهم وطموحهم في أن يحكموا مدنيّين مختلفين عنهم: بوصفهم مدنيّين أوّلاً، ثم بوصفهم أهالي بعد ذلك. ثم كيف لا يمكنهم أن يكونوا مخلصين للواجب العسكري: تسوية الصفات الفردية وتقليصها إلى تبعية أكبر، وتعطيل أي تطوُّر يحملهم- بالتأكيد- إلى انصياع أقلّ؟

ثم خلص إلى: لا، ليست وظيفتهم أن يحكموا مدنيّين.لا، لن يكونوا مربّين إطلاقاً. يترك كل واحد منهم، عند انصرافه، الأشياء كما كانت في وضعيتها، وكما وجدها عند وصوله، دون أي تطوير أو عمل على تحسينها. إنه عهد الركود لهذه المناطق العسكرية المنفصلة عن باقي العالم، عن فرنسا الحيّة والمتجدِّدة، عن الجزائر الحقيقية، عن طريق سور الصين، يقومون برعايته،

ويحاولون الرفع من شأنه أيضاً، بحيث لا يمكن، وللأبد، اجتيازه. إنه معقل للجيش، مغلَق في وجه من لا ينتمي إليهم.

تسلَّلَ حزن عميق إلى نفسه، من هذه المهمّة التي كانت يترقّبها مثمرةً، ولكنهم أضاعوها. ما يزيد من مرارة حنقه واستيائه هو هذا العجز الشخصي من عدم تمكُّنه من تحسين وضع الأشياء، إذ كان يرى، بجلاء، الخطر الاجتماعي والخطر الوطني اللذين يحدقان به، وهو الذي يحتلّ مكاناً تافهاً داخل هذه المنظومة التي تسيطر على كلّ شيء. بوصفها قاعدة كلّ شيء، والتي نُصِبت بجانب «بيرو أراب» المسيطر على كل شيء، لم تكن له سلطة، كان يجب عليه أن يبقى، في دوره متفرِّجاً غير فاعل. في البداية، حاول جاهداً أن يتكلَّم، ولكنه اصطدم برأي مسبق جثم في الأذهان، وباعتقادات راسخة ومصرّة لهؤلاء، ولكنّ ما كان يدفعه، كذلك، إلى الإحجام عن الحديث، هو سخريتهم.

«يا دكتور، أنت شاب تجهل الكثير عن هذا البلد وأهاليه، عندما تتعرَّف إليهم وتعاشرهم ستقول الكلام الذي نقوله نفسه». قال له النقيب «ماليه» بنبرة تنمّ عن سخرية وعجرفة، جمَّدت «جاك» في مكانه.

منذ أن بدأ يتعلَّم العربية، ويتحدث، قليلاً، بها، كانت تحدوه الرغبة في أن يتمدَّد، قليلاً، على الحصير، أمام مقاهي المور،

يصغي إلى الناس، إلى أهازيجهم الحرة، كما الصحراء، وكما هو، يغلب عليهم الحزن المغلَّف، كلامهم البسيط.

شيئاً فشيئاً، بدأ «السوافة» يتأقلمون مع هذا «الرومي»، هذا الضابط الذي لم يكن عنيفاً معهم، أو متعجرفاً، يتحدّث معهم بلهجة صادقة، يجلس بجانبهم، يوقفهم بإشارة منه عندما يهمّون بالنهوض ليحيوّه حين اقترابه منهم. لماذا هو هكذا؟ لا يعرفونه، ولا يفهمون ما يقوله، لكنهم يرون فيه منقذهم من جميع ما يتعرَّضون له من شقاء، يقاوم، بهدوء وبخطًى حثيثة، حذرهم وجهلهم بالأشياء، وها قد بدأ المرضى، وقد اطمأنّوا إلى سمعة الدكتور ولطفه، يفدون، بكثرة، إلى «بيرو أراب» يزورون هذا المكتب في أثناء جولاتهم، يزعجون أحلامه على حصائر المقهى، كان يسجِّل ما تحقّق من تقدُّم؛ وهو ما كان يثلج صدره. صعوبات المهمّة لم تخمد همّته، ولا نكران الجميل من طرف البعض.

ساعة الراحة اللذيذة والحلم الكئيب، كانت ساعة المساء، عند غروب الشمس حيث يتوجّه رأساً، إلى مقهى مور صغير يقابل، تقريباً، مقرّ «بيرو أراب»، وهناك، متمدِّداً يتأمَّل مشاهد أخّاذة تتجدّد كلّ يوم، لا يشبه، مطلقاً، بعضُها بعضاً، في ساعة الاحمرار تلوح له العمارات اللبنية لـ «البرج» الذي يتلوّن، بدايةً، باللون الوردي، ليتحوَّل، شيئاً فشيئاً، إلى لون أحمر بلون الجمر الخارق.

كل الخطوط المستقيمة أو المنحنية التي ترتسم مع احمرار السماء، تبدو وكأنها استمدَّت وهجها من الذهب في الخلف، القباب الملتهبة للمدينة والكثبان الرملية المتوهِّجة، ثم يمسك الكل: بعضه بالآخر، بالتدريج، لتعود إلى الألوان الوردية، وما يشبه قوس قزح غيمة شاحبة بلون أصفر فاتح فضي، تنزلق نحو نتوء العمارات، نحو قمم الكثبان الرملية، بتجويف عميق، الأروقةُ الضيقة بين الرمال الظلال البنفسجية لليلة زاحفة، تصعد فوقهم وهّاجة تخمد الحريق. الكل، بعد ذلك، يغرق، عميقاً، في ظليل بلون أزرق كحلي.

من المنارة الكبرى لـ«سيدي سالم»، والسطوح الصغيرة للمساجد الأخرى المتهالكة، يأتي صوت المؤذِّن أجشّ وفظّاً، يجرّ مع هذا الصوت الحالم آخر الدعايات الإنسانية لمدينة دون بلاط، ودون سيارات، يختفي صوتها إلا من صوت الناي البدوي الصغير الذي يهمس بحزن لا نهاية له، هناك، على أنقاض الأزقّة المتهالكة بـ«مصعابة» غرب «الوادي».

كان «جاك» يحلم... إنه يحبّ هذا البلد الآن، لاحتياجه إليه كشابّ نشط. مهمّته اليومية تكفي، وكل هذا الحزن الشاسع، وكل هذا اللغز الذي هو جمال هذا البلد يكفي حاجته إلى الحلم.

عاش «جاك» عفيفاً طاهراً نتيجة لتمتُّعه بذوق جمالي

أخلاقي، ونتيجة خجله ـ أيضاً ـ هنا، أكثر من هناك، في فرنسا.

داخل فتور هذه الحياة الرتيبة، داخل وحدة روحه، بدأ يشعر باضطراب عظيم، وبعطش للمعاني، لم يعشه من قبل. ثمة الرغبة أوّلاً، والتي تثير لديه حدّة الأحاسيس التي تجعله هادئاً ولطيفاً رغم أنه لم يبلغ درجة الإشباع، غذّى روحه المتفتِّحة لجميع أنواع الافتتان وجميع الارتعاشات، غير أنه، بعد ذلك، بدأ يشعر بتوتُّر وشدّ أعصاب نتيجة هذا الضغط المرهق اللامعقول، ثم أخذ الغضب ينتابه بلا سبب، واستوطنه احتقان خفيّ كَدَّرَ طمأنينته الهادئة. خاصم نفسه محاولاً التصدّي لهذا الهيجان الذي لم يفصح عن طبيعته، والذي يكاد يكون مادّيّاً كلّه.

في مساء أحد الأيام، كان يمشي متمهِّلاً بلا هدف، وسط الأزقّة، شمال «الوادي»، حيث توجد منازل مخربة، لا يبدو أن فيها سكّاناً. كان يحبّ هذا المكان الهادئ والخالي من الناس، مات سكّان هذه الأزقة دون أن يتركوا ورثة، أو ربَّما انتقلوا إلى الصحراء، إلى «غدامس» و«بر الصوف» أو بعيداً.

أرخى الليل سدوله.. كان «جاك» غارقاً في الحلم، وهو يجلس على صخرة. فجأةً، تراءى له بين إحدى هذه الخرائب ضوء شاحب، ثم إيقاع صوت امتزج بصليل أَسْوِرة.. صوت امرأة كانت تغنّي بصوت خافت يشبه السحر، من فرط ما أحسَّ من

غرائبية كئيبة حواها نسق هذا الغناء.

كانت الرياح الأبدية لـ«سوف» تهبّ دافئة بين الخرائب، وقد تسلَّل عطر الصمغ غامراً سماء المكان.

توقَّف الغناء، بدت امرأة على عتبة منزل قديم، كانت طويلة ورقيقة تحت ملحفتها السوداء، أسندت ظهرها إلى الجدار بأناقة، على بصيص الضوء الباهت الضارب إلى البنفسجي، شاهدها «جاك» ذابلةً قليلاً، متعبة، كانت جميلة جدّاً، جمال آلهة. شاهدته، ارتعدت خوفاً، لكنها لم تدخل إلى منزلها، مكثا مدّة طويلة، وكلّ منهما يتأمّل الآخر، وقد استوطنته حيرة شديدة، لم يدرك كنهها.

«أرواح»، (تعالَ) قالت بصوت خافت، فاقترب منها، بدون تردُّد.

أمسكته من يده وتوجَّهت به إلى عتمة الخراب صوب الضوء الصغير المعلَّق على جدار. ثمّة مصباح صغير يأخذ شكلاً ضارباً في القدم، يشتعل متمايلاً، فيه مجمرة صغيرة مربَّعة الشكل، حديدية، حيث تسبح فتيلة سميكة في الزيت. في ركن من الغرفة، وعلى نار من الجمر كان يغلي قدر من الماء، هناك قطّة سوداء كبيرة ملتفّة كالكرة من فرط البرد، تحلم على وميض النار الأحمر، تعبّر، بموائها البسيط، عن سعادتها.

دعت المرأة «جاك» إلى الجلوس على عتبة الحجرة، ومكثت واقفة أمامه صامتة، تناول «جاك» يدها، فيما كانت يداه ترتعشان، وكان يشعر بدوار. من داخل صدره اندفعت حرارة رقيقة، صعدت إلى حلقه، وكادت تخنقه... ولا مرّة، في حياته، أحسّ بنشوة تقترب من الشبق، وقد حاول تمديد هذا العذاب الرقيق إلى ما لا نهاية، لكن، من غير دراية، قال متلعثماً:

لكن، من أنت؟ وما ذا تفعلين هنا؟

تدعى «مباركة»، زوجها المتوفّى فلّاح فقير من قبيلة «اشاش»، يتيمة، لم يكن لها سوى أخ واحد، كانت تمتهن حمل الماء في المدن الكبرى بالتلّ، لم تكن تعلم أي مكان بالتحديد، مكثت وحيدة بين القنّاصة ورجال «السباهي»، خرجت معهم وشربت الخمر، ولأن لا أحد أرادها زوجة له، لجأت إلى هذا المنزل القديم الذي يملكه شقيقها، وعاشت مع عمّتها الكفيفة. كانت تمارس الدعارة لسدّ الرمق. أصبحت، الآن، تخشى «بيرو أراب».

توسّلت إليه بالسعي إلى عدم تحويلها إلى الدار العمومية، وألا يفشي سرّها، طمأنها «جاك». كانت قليلة الكلام، حكايتها بسيطة ومختصرة، كانت تبدو قلقة.

استأذنت «جاك» لتحاول سدّ مدخل البيت بحجارة أو

بألواح، العسكر يأتون أحياناً في الليل، ثم عادت لتنقل المصباح الصغير إلى غرفة خالية من كل شيء ما عدا حصيراً فوق طاولة وبعض الخرق البالية التي تشكّل جميع أثاثها. هنا، كانت تشعر بالسعادة التي طالما حلمت بها. وهاهي الحياة، وقد بدت لها بسيطة ورائعة جدّاً.

كانت مباركة تلتزم الصمت والحذر في خضوع لا متناه، دون أن تعمل على فتح هذا السرّ الغرائبي الذي يحوِّط لا شعورها بعيداً، والذي لم يكن يقلق «جاك»، بل كان يأسره. عندما تشاهده سارحاً في حلمه تصمت، ثم تجلس القرفصاء في الساحة الصغيرة، تشدو بصوت متمهِّل عذب وأخنّ قليلاً، صوت يشبه إيقاع أحلامه. تعوّد أن يأتي إلى هنا مساء كلّ يوم، بعد أن هجر مطبخه المقرف، لقد تحوَّل بيت هذه المرأة إلى مسكنه الخاص. هل كانت مخلصة له؟ لا يشكّ في ذلك.

لقد رضيت لنفسها، منذ اليوم الأول، هذا النمط من العيش، دون تردُّد ولا مفاجأة، لم تكن محتاجة إلى أي شيء. لم يعد يأتي إليها العسكر، وهم سكارى، لشراء جسدها، وحقوق ضربها، وفي المقابل تكبُّدها الآلام، مقابل بضعة قروش.

كانت «مباركة» سعيدة.

في الحيّ، وفي «بيرو آراب»، لاحظ «جاك» حدوث الكثير

من التطوُّر. لم تعد هناك النظرات الحذرة القاتمة، لم يعد هناك وجود للخوف الممزوج بالحقد الدفين. لقد اعتقد، مخلصاً، أنه استطاع أن يكسب نفوس هؤلاء السكّان جميعهم، بالمقابل، كان هناك شبه إحساس لديه بأنهم لا يكترثون به، كانوا أقلّ تحمُّساً لخدمته، وأقلّ انصياعاً له، لا يستجيبون، غالباً، لأوامره، يعترفون له بذلك دون خشية منه، ذلك لأنه لم يكن يستخدم حقّه في المعاقبة. كان يشعر بكل ذلك، ولكن، ألم يكن ذلك أمراً طبيعياً؟ فإذا كانوا قد تعوَّدوا الانصياع لرفاقه إلى درجة الاستسلام المطلق، فوق كلّ إرادة إنسانية، فإن مردّ ذلك كلّه إلى الخوف الذي كان يدفعهم إلى هذا السلوك، كانوا يهرعون لخدمته أكثر من طاعته، ولكنهم يفعلون ذلك على مضض، حتى في صراعه الحقيقي الذي واجهه ضدّ الرغبات السيّئة للأهالي، الذين كانوا يمتنعون عن اتّباع تعليماته الطبّية، وكذلك تحسين وضعهم الصحّي. ومع ذلك استطاع «جاك» أن يحرز تقدُّماً ملموساً في اكتساب صداقة بعض المتعلِّمين منهم، مثل معلِّمي القرآن، بفضل احترامه لعقيدتهم ولرغبته الصادقة في التعرُّف بهم، وولوج عالم تفكيرهم ورؤيتهم. لقد استطاع أن ينال تقديرهم، مما فتح أمامه كثيراً من القلوب الأخرى التي تحمل كثيراً من البساطة والغموض.

لماذا يحكمون الناس بالترهيب وبالترغيب؟ لماذا يستلهمون

ممارساتهم من الخوف الذي لم يكن سوى شكل من الاشمئزاز والنفور من الوحشية؟ لماذا الاعتماد المطلق على الخضوع الأعمى والانصياع؟ أسئلة كثيرة كان يطرحها «جاك». وبصراحة، إن هذا النظام القمعي كلّه يثير فيه التمرُّد، وهذا لا يمكنه تبنّيه.

في أحد الأيام دعا النقيب الدكتور للحضور إلى مكتبه:

ـ اسمع، عزيزي الدكتور! أنت لا تزال شابّاً وجديداً في هذه المهنة، تحتاج إلى من ينصحك... حسناً! أنا متأسّف كثيراً لما أريد أن أقوله لك الآن، من أنك لا تحسن التصرُّف معهم. تُبدي تسامحاً مفرطاً مع السكان! يجب إن تفهم أنني مُلزَم، كونك قائد سلاح، بالسهر على فرض الانضباط، غير أن هذا كله أقلّ خطراً من موقفك إزاء الأهالي المدنيّين. تبدو أكثر تقرُّباً منهم، ليس لديك أي انشغال ضروري وثابت لتعزيز تفوُّقك وسلطانك عليهم. صدِّقني، هم جميعهم من طينة واحدة، يجب أن يُسَيَّروا بيد من حديد. موقفك هذا سينتج عنه مضاعفات خطيرة. يمكنه أن يثير الاضطراب لدى هذه الأرواح المتوحِّشة والمتعصِّبة. أتصدِّق إعلان إخلاصهم والصداقة المزعومة لقادتهم الدينيّين؟ هذا كلّه مكر وخداع. حذارِ، حذارِ! أنا أقول لك كل هذا، أوّلاً وقبل كل شيء، لمصلحتك، ثم يجب علي أن أتحسّب من النتائج المترّتبة عن موقفك. أعتقد أنك ستفهم أنه لديّ، هنا، المسؤوليات كلّها.

استشاط «جاك» غضباً، بعد أن أحسّ بجرح عميق وقلق، وقد عَبَّرَ للنقيب، تارةً بدهشة، وتارةً أخرى بغضب، عن أفكاره بخصوص جميع ما استنتج من ملاحظات، ثَنّى النقيب «ماليه» جفنيه، وقال:

ـ اسمع يا دكتور، بتبنّيك لمثل هذه الأفكار، من المستحيل أن تقوم بعملك هنا. تخلَّ عنهم، أرجوك. هذا كله ليس إلا ضرباً من الأدب، الأدب الصرف. هنا، وبمثل هذه الأفكار أنت تدفع إلى التحريض على العصيان.

أمام استحالة تفاهمهما، أحسّ «جاك» بالغضب العارم، واليأس.

ـ تصرَّفْ كما تشاء يا دكتور، ولكني أرجوك، لا تضع أفكاراً من هذا القبيل موضع التنفيذ هنا، لا يمكنني أبداً أن أتسامح مع هكذا موقف، ثم إننا، هنا، أفراد قليلون من الفرنسيين، يبدو لي مناسباً أنه بدل إحداث الانشقاق في صفوفنا من المفروض أن يصغي كلّ منا إلى الآخر.

ـ صحيح، ولكن من أجل غاية مفيدة، إنسانية وفرنسية! صاح «جاك».

ردّ النقيب بعجرفة:

نحن هنا للمحافظة على الراية الفرنسية عالية وخفّاقة، وأعتقد

أننا نقوم بهذه المهمّة بكلّ إخلاص وتفانٍ، وهو واجب الجنود والمقاومين. لا يمكن أن نفعل شيئاً آخر من دون إغفال واجبنا. نحن جنود، وجنود فقط. على كلٍّ، أنا نبّهتك.

خرج «جاك» غاضباً وضجراً، ولكنه معتدّاً بما يمليه عليه ضميره، ولم يغيِّر أي شيء من مواقفه.

من يوم إلى آخر، بدأ يحسّ بتزايد عداوة رفاقه، شيئاً فشيئاً، علاقاته معهم بقيت في حدود المجاملة، ثم أخذت بالانخفاض إلى الحدود الدنيا الضرورية. كان يشعر أنه غير مرغوب فيه، وأنه أصبح مزعجاً، ثم ما لبث أن انطوى على نفسه، وأصبح البيت الصغير وسط المواقع الأثرية عزيزاً على نفسه، أصبح يستريح هناك، وسط هذا الديكور الذي بات يحبّه، بعيداً عن كل ما يحوِّل الحياة إلى وضع غير متسامح، كما هو واقع الحال هناك، في «البرج». لم تحاول مباركة أن تسأله عن أسباب الحزن الذي ألمَّ به، ولكن، وهي جالسة بجانبه، كانت تنشده بعضاً من أغانيها المفضّلة، والابتسامة تعلو محياها.

هل كان يحبّها؟ لم يتمكَّن «جاك» من تأكيد حقيقة ذلك، لكنه لم يكن يعاني من هذا الشكّ، ذلك أن ما يشدّه، ويفتنه في شخصيتها، هو هذه الهالة التي تحيط وجودها، كانت، بالنسبة إليه، شيئاً ما يشبه التجسيد الروحي لبلده وعرقه، علاوةً على

حزنه، وصمته وعجزه المطلق عن الضحك والبشاشة. ذلك أن مباركة لا تضحك إطلاقاً. اكتشف داخل ابتسامتها كنوزاً من الأسى والشبق، ثم إنه يحبّها هكذا، غير مفهومة، غير معروفة، ذلك أنه كان لديه احتمال ما بأنه يعشق فيها حلمها الخاص.

لو أُتيحت ظروف غير هذه، مع العادة الكبرى للبلد وللسلالة العربية، خاصّة إذا بدأ حبّهما الغريب ببساطة، كان يمكن أن يرى مباركة في يوم مختلف تماماً.

شيئاً فشيئاً، بدأ «جاك» يستعيد هدوءه وشجاعته، وقد نسي، تماماً، تحذيرات النقيب له، حتى أنه لم يعد يعي ما تتضمّنه من تهديد،

مضت خمسة أشهر على مجيئه إلى هنا، اكتشف أنه يحسن، الآن، الحديث بلغة الصحراء، وراح يتعرّف هؤلاء الرجال الذين بدوا له، في البداية، غرباء، ولكنه شعر بأنهم رجال، مثلهم مثل الآخرين لا هم أسوأ، ولا هم أفضل، آخرون فحسب، ولعلّ هذا ما يدفعه إلى حبّهم، لم تكن لديهم تلك الفظاظة السوقية التي كان يكرهها كثيراً في أوروبا. كما أن أفق الرمل الرمادي الذي يحاصر المدينة الرمادية لا يخيفه أبداً، لقد أصبحت روحه تشترك مع المطلق.

غادر «جاك» المواقع الأثرية، بين إشعاع الفجر وألقه، وبين

النشوة اللذيذة لريح خفيفة الهبوب، كان منشرح الصدر، يمشي في الشوارع المستيقظة، يمرح منتشياً بنعمة الحياة والشباب، هذا البلد الذي أصبح يحبّه، بدا له جديداً، وكأن ستاراً كان يغطّيه، ثم أُسدِل عنه فجأة. ظهرت «الوادي»، وهي مختبئة بين الكثبان الرملية التي تحيط بها، أنيقةً لا يرقى الشكّ إلى جمالها.

آه! المكوث هنا دوماً، وعدم الذهاب مطلقاً! القيام بمهامه الجميلة والشاقّة في آن معاً، ثم التخلّي عن ساعات التأمُّل العذبة، وأخيراً، وفي دفء الليالي، يدع كيانه مستسلماً لسلطان الحبّ الذي لم يكن يبحث عنه، لم يستطع «جاك» أن يفهم كنه هذه المغامرة مع هذه المرأة، وتبعات هذا الحلم الذي تشكّلت تفاصيله، أو تكاد.

لم يكن يرغب في تحليل مشاعره، وعندما فكَّر، مصادفةً، في أن يعيد، قليلاً، ترتيب انطباعاته الجديدة، شَعَرَ بضغط وكثافة وسرعة في الأفكار، إلى درجة عدم الانسجام، لهذا فضّل أن يعيش لحزنه، لهدوئه الكبير الذي لا شيء يزعجه أبداً.

فكَّرَ أن الأيام والشهور تمرّ، في هذا البلد، بمهل كبير، أكثر انسجاماً من أي مكان آخر. انتهت عصبيَّته إلى الهدوء قليلاً، وعبقت روحه بصمت الأشياء في رقة، ودون مكابدة أو معاناة: لقد رأى أنه أصبح ينزع، شيئاً فشيئاً، إلى نشاط أقلّ، غير أنه

يتخلّى عن ذلك كلّه بشبق!

لقد عقد العزم على طلب الاستقرار هنا، وبشكل دائم، ذلك لأنه لم تعد لديه، ومن جديد، أيّة رغبة في رؤية مدن أوروبا وسكّانها، والأراضي المغلقة والرطبة، ولا حتى الاخضرار. أحبّ «سوف» المضطرمة والكئيبة والتي يتمنّى أن ينهي حياته فيها، بكلّ رقّة، بكل جمال هادئ.

أبدى «جاك» تفهُّماً خاصّاً عندما طلب منه النقيب، في منتصف شهر يناير، التحادث معه من جديد. كان رئيس الملحقة، هذه المرّة، هادئاً وحاسماً:

«لقد سبق أن أنذرتك مراراً، يا دكتور، بأن سلوكك هذا لا يناسب صفك، ووظيفتك. لم تأخذ، بالحسبان، نصائحي لك، ليس في علاقاتك مع الناس ومع زبائنك من الأهالي فحسب، ولكنك ربطت علاقة مع امرأة من البلد سيّئة السمعة، جعلتها عشيقتك، وأصبحت تعيش معها، والآن بتّ تظهر هذه العلاقة علناً إلى درجة التجوُّل معها مساءً. ستعترف أن هذا النمط من السلوك مستحيل. أرجوك أن تعمل على قطع هذه العلاقة السيّئة التي تضرّ بسمعتك وبسمعتنا نحن أيضاً. أرجوك، اقطعها، إنه لتصرُّف صبياني، يجب الانتهاء منه فوراً، وإلا سنصبح مثار سخرية حقّاً... لعلك تدرك، ببساطة، كم يؤسفني التحدُّث معك

هكذا... أستمحيك عذراً على هذه الخشونة البادية مني، ذلك أنه لا يمكنني أن أتسامح مع وضع كهذا. فكّر، إذاً!: تقيم في مقهى المور بالقرب من ناس غزا القمل رؤوسهم، ويكفي أنهم لا يبادلونك التحية! لديك صداقات مشبوهة مع المرابطين، إضافة إلى هذه العلاقة، هذه العلاقة المشؤومة!».

احتجّ «جاك». لم يعد- إذاً- حتى سيّد نفسه، في تسيير حياته الشخصية وسلوكياته خارج المصلحة!

تساءل: لماذا يوجد لدى بعض الضباط، داخل «البرج»، زنجيات مُنحْنَ هدايا من رؤساء الأهالي؟ لماذا البعض الآخر جاؤوا بأوروبيات بَغِيّات فظيعات، من أماكن سيّئة في الجزائر أو في قسنطينة، يتباهَيْن، بوقاحة، في الدائرة، وحتى في «بيرو أراب»، ثم يأمرون الأهالي، الذين هم أكثر احتراماً منهم، بتحيّتهم، ورجال الفرقة بالإذعان لهم!

- كل هذا لا يمسّ، في شيء، شرف هؤلاء الضباط! الزنجيات ما هنّ إلا خادمات وعاملات في البيوت ليس إلا. لا يمكن أن نأخذ الأشياء بجرمها، أما بالنسبة إلى الأوروبيين فإن ارتباطاً مع إحداهن لا يستوجب اللوم، فمن الطبيعي جدّاً أن الأهالي- سواء أكانوا مدنيين أم كانوا عسكريين- ملزمون بتقديم الاحترام الكامل للفرنسيين. يجب أن تلاحظ، بنفسك، الفرق بين

العلاقات غير المؤذية لهؤلاء الضبّاط، وعلاقتك أنت المنحرفة، المشوِّهة لسمعتك.

ـ أنا متأكِّد ـ سيّدي النقيب ـ أن علاقاتي هي الأكثر أخلاقاً وإنسانية.

ـ سأكفّ، في الأخير، عن الاستمرار في هذا النقاش المرهق، وما دمت ترغمني على ذلك، أحذِّرك أنه إذا لم تغيِّر، تماماً، نمطك في العيش وممارساتك، وإذا لم تلتزم بالأعراف التي يمليها المنطق والضرورات التي يقتضيها الاحتلال، سأكون مضطرّاً لأن أطلب من رؤسائي ترحيلك من المنصب.

كان «جاك» يعرف الطباع الصلبة والعنيدة للنقيب، غير أنه لم يكن يفكِّر، أبداً، في مثل هذا الاحتمال.

دخل غرفته، مكث جامداً، مذهولاً لمدّة طويلة.

فَكَّرَ: ما الفائدة من المكوث هنا، في هذه المدينة التي تحوَّلت إلى سجن كبير، بعد أن يغيِّر نمط حياته، ويصبح كالآخرين، يغيِّر من شخصيته وقناعاته، يتحوّل إلى آلة، يتخلى عن مهامه الإنسانية التي شرع في تجسيدها، ويطرد مباركة من حياته، ثم يتلاشى إلى العدم، تماماً كما لو أن شيئاً ما نُزِع من روحه أو لحمه؟!

أبدا، لن يساوم، ولن يخضع لأحد، وسيبقى هو نفسه.اجتاح قلبه ضجر رتيب. وبشجاعة، لم يغيِّر شيئاً من نمط حياته، لقد

كان في انتظاره معاناة أخرى، لاحظ أن معلِّمي القرآن، من أصدقائه وقادة الأهالي، باتوا يظهرون انزعاجاً لحضوره بينهم، لم يعودوا يشعرون بالسعادة في أثناء زياراته لهم، كما كان يحدث في السابق، لم يعودوا يحثّونه على البقاء بجانبهم، أصبحوا أكثر برودة وتكلُّفاً في رسم احترامهم له.

في المقهى، ورغم احتجاجاته، كانوا ينهضون من أمامه، يقدِّمون له التحية، ثم ينفضّون عند اقترابه منهم، لا يلوون على شيء!

لذّة الحياة داخله انقطعت. أصبح، من جديد، أجنبياً. شيء ما خفيّ وشرّير أيقظ فيه جميع أنواع الخشية والحذر، لقد انهارت إنجازاته على نحو محزن، دون أن تكتمل، أُلقيَت أرضاً، بغتةً، وبفظاظة. الممرضون باتوا يبدون سخرية كبيرة منه، وأصبحوا يلجؤون، في سلوكهم، إلى الوقاحة، التي تصل، أحياناً، إلى حَدّ الاحتقار. أصدقاؤه ورفاقه في المتنزَّهات البعيدة، سباهِيّي «بيرو أراب» التزموا، من جديد، الصمت الطويل، داخل انصياع الأيام الأولى.

بقيت مباركة!

ولكنه، عندما يتذكَّر أن هذا الحلم الذي كان يُشعِره بالانتشاء، منذ نصف سنة، بلغ منتهاه، وأن كلّ شيء تبدَّد بما يشكّل

الاحتضار لسعادته، مشوّشاً هدوء إقامته بالمواقع الأثرية، كان يُمضي ساعات مريرة يحلم، تارةً، بتلك الأيام السعيدة التي لن ينساها، ويفكر، تارةً أخرى، في أسباب إخفاقه. لقد فهم أنه كان يكفي، للنقيب ومساعديه، القولُ، أمام قادة الأهالي بأنه يعارض مواقف الدكتور، وأن معاشرتهم له غير مرغوب فيها، ليجدوا أنفسهم مجبرين، نتيجة لإذعانهم للمطلق، على التخلّي عنه.

طوى قلب «جاك» حزناً عميقاً، بعدما أسرع حدث عَرَضي في تهديم كل ما بناه كي يعيش ويفكِّر، فقد كانت مباركة معتادة أن تزور، من حين إلى الآخر، صديقة لها متزوجة في «المصاعبة»، لم تكن تغطّي رأسها، لعدم اكتراث ناتج عن منزلتها الطبقية. في مساء يوم، عندما كانت عائدة من هذا الحيّ البعيد عنها، حاول عمرو بن ضيف الله، صاحب الماخور أن يهينها، غير أن مباركة ردَّت عليه بعنف وبلا خوف، وسرعان ما تدخّلت نساء الماخور في النزاع، لينتهي بتدخُّل عون الشرطة الذي اقتاد مباركة إلى السجن.

تَمَّ سجنها لخمسة عشر يوماً، بتهمة ممارستها الدعارة السرّية، وقُيّدت في السجل. احتج «جاك» بقوّة، مستاءً من رؤية حلمه ينتهي، هكذا، في الوحل.

ـ آه! اللعنة. قال النقيب، أكانت عشيقتك؟ لم أكن أعلم أن

هذه هي... آه! كم هو مضجر الأمر حقّاً! ثم أردف:

ـ ألا ترى كيف كنت محقّاً في تحذيرك! يا للمصيبة! لقد أصبح الناس جميعهم، الآن، يتحدّثون عن عشيقة الدكتور. ماذا في وسعي أن أفعل في ظروف مثل هذه؟ ليس بمقدوري أن أعيدها إليك، خاصّة بعد الذي وقع، ستكون مصيبة مريعة لو رافقتها مرّة أخرى. آه! ليتك استمعت إليّ!

استشاط «جاك» غضباً، ثم قال:

ـ ستودعها السجن إذاً! ولكن، إلى متى؟

ـ أنت تعلم أن الدعارة مُقَنَّنة بصرامة. لا يمكن لهذه المرأة أن تخرج من السجن إلا لتدخل الماخور.

ـ ولكنها لم تعد عاهرة، كنت أعيش معها مثلما يعيش المتزوِّجون!

ـ لقد عثرنا عليها بجوار الماخور، بوجه سافر، وتتفوّه بكلمات بذيئة. ولهذا تَمَّ توقيفها. المعلومات التي نملكها عنها أنها لم تتوقَّف عن ممارسة مهنتها السيئة من هنا ـ يا دكتور ـ لا يمكنك أن تأخذ هذه المرأة، وهذا لمصلحتك. أرى أنك مفرط في الرومانسية. ماذا بوسعي أن أفعل لك!؟.

حاول النقيب، رغم القلق الذي انتابه، أن يحافظ على نبرة حُبّية ومتسامحة.

فجأة، ولأن هذا النقاش كان شاقّاً ومتعباً، اتَّخذ «جاك» موقفاً... ولعلّه الموقف الوحيد الذي بقي في جعبته:

ـ إذاً، حضرة النقيب، سأطلب اليوم، بالذات، وبشكل مستعجل، تحويلي... بدافع صحي.

لاحت بارقة سعادة في وجه النقيب المتجهِّم.

ـ ربما أنت على حقّ. أفهم أن إقامتك بالوادي صعبة وشاقّة، بالتوازي مع الأفكار التي تحملها، والتي لا أشكّ في أنك ستقوم بتعديلها قليلاً. من المؤكَّد أننا سنفتقدك كثيراً، ولكن، بالنسبة إليك، الأفضل أن تذهب.

ـ نعم، ولكن، مع قناعتي الخالصة التي لن تتزعزع بأن نظامكم الإداري خطر محدق، يمسّ القضية الفرنسية.

أجاب النقيب وقد هَزَّ كتفيه ساخراً:

ـ كلٌّ منا له أفكاره يا دكتور. أنت حرّ قبل كل شيء.

ـ نعم، أريد أن أكون حُرّاً!

ثم غادر المكان. إنه يترقب الآن، وبنفاد صبر، الأمر بمغادرة هذا البلد الذي أحبَّه كثيراً، وكان يتمنّى الاستقرار فيه.

الشيء الغريب هو أنه، ومنذ أن بدأ يشعر بأنه سيغادرـ حتماًـ المكان، بدا له الأمر وكأنه غادر قبلاً «سوف»، وأن هذه المدينة، أو هذا البلد الذي يستوي هنا، كان، مَرّةً، مدينةً أو بلداً ما لا يهمّه

الآن، ولكن، ليس- بالتأكيد- «سوف» المتألِّقة والرتيبة. كان يحدِّق مليّاً في هذا المشهد العائلي بشعور الحالم غير المبالي نفسه، الذي نحسّ به ونحن نشاهد مرفأً مجهولاً، لم يسبق لنا الذهاب إليه إطلاقاً، ولن نذهب إليه على سطح سفينة، خلال توقُّفها القصير.

لقد تمكّن، بواسطة هديّة سلِّمها للـ«شاوش»، أن يدخل إلى الخليّة التي تقبع فيها مباركة. كانت، بالنسبة إليه، خيبة أمل جديدة، ضغينة أخرى: استقبلته بعاصفة من العتاب الشديد والبكاء والشهيق، بالنسبة إليها، لم يكن «جاك» يحبّها، هو الضابط- كما كانت تتوهّم- الذي يمكنه أن يفعل كل شيء. لقد تركهم يسجنونها، ويقيِّدون اسمها في السجلّ. أسمعته وابلاً من الشتائم. لقد كانت هي الأخرى، مغلقة، وعدوانية جدّاً.

غادرها «جاك». كلّ شيء انتهى بالنسبة إليه.

كان يرغب- على الأقلّ- في مشاهدة المنزل الصغير بين المواقع الأثرية، حيث عاش أيّاماً سعيدة. الآن، ولأنه أصبح وحيداً، ولأن كل ما كان يتصوّره ثابتاً ودائم الاستمرار بات شبيهاً بهذه الأطلال الرمادية الغامضة وغير المجدية! كان يشعر، مستسلماً، بعجزه عن معاودة حياة جديدة أخرى، مبتذَلة وخالية من المعاني.

تحت السماء الكبرى المشعّة والمضيئة. للربيع، كانت تمتدّ رمال «سوف»، بين الإرهاق الشديد للصيف ولازوردية أمواجها البعيدة. كان «جاك» يرغب في مغادرة البلد الذي أحبّه في الساعة التي أحبّها فيها: ساعة غروب الشمس. للمرّة الأخيرة كان يحدّق في معالم هذا الديكور الذي سوف لن يراه أبداً، عندما يتذكَّر ذلك يتسلَّل الاعتصار إلى قلبه.

للمرة الأخيرة، وخلف، عينيه اللتين كان يشعّ منهما الحنين، توالت المشاهد الساحرة للمساءات المشعّة.

عندما اجتاز كثيب «سي عمر» الكبير، وقد اختفت «الوادي» وراء السور العالي للرمل الأرجواني، أحسَّ «جاك» باستسلام كثيف لحزن اطمأنّ إليه قلبه. لقد أصبح هادئاً الآن، يستمتع بمشاهدة الأكواخ الصغيرة الحزينة، وهي تتعاقب في المرور أمامه، ثمّة «زريبات «صغيرة بنيت بجريد النخيل، ومنازل ذات قبب تمدِّد، بمغالاة، الظلال البنفسجية لخيول الفارسين السباهيين، وقد انعكس عليها الضوء الأحمر للمساء.

فجأةً، ارتأت له فكرة: لعله خُلِق لهذا، ستُجهَض جميع مؤسَّساته، وستنتهي جميع أحلامه إلى هذا المصير، سيذهب إلى المنفى مطارداً، تقريباً، من جميع أركان الأرض حيث يرغب في أن يعيش ويحبّ.

ذلك أنه لم يكن يشبه الآخرين، ولم يكن يرغب في طأطأة رأسه تحت نير الولاء الظالم لهم.

لمتورني[1]

كوخ بأحجار منفصلة، حقل هزيل كثير الحصى، يحيط به جبل وعر المسلك، وبؤس مسكن يعيش داخله اثنا عشر طفلاً... ثم التمرّن القاسي لبنّاء لدى ربّ عمل صعب المراس.

شيء آخر قليل، أكثر غموضاً، لا يكاد يتموقع في ذاكرته كرجل أمّي، بعض الفلتات من الشمس لأعالي القمم الزرقاء، وبعض الأماكن الهادئة بالأخشاب المعتمة، حيث ينمو نبات السرخس بوفرة على حافّة السهول.

ذكريات علقت بذاكرة «روبيرتو فروجي» يوم كان عاملاً

1- كلمة هي خليط من الدارجة الجزائرية والفرنسية، وتعني الخارج عن الدين(المترجم)

متجوّلاً، وهو يحلّ في مدينة الجزائر رفقة عدد من أصدقائه.

هناك، في إفريقيا، اشتغل لصالحه الخاص، جمع شيئاً من المال سمح له بشراء حقل في منطقة «سانتا ريبارتا» حيث اكتفى بزراعة الذرة والشيلم، بما يكفي لسدّ حاجياته.

أمضى ردحاً من الزمن في المدن الساحلية، كان يلتقي بعضاً من أبناء بلده، ووجوها أخرى يستأنس بها، وهو ما كان يشعره الاطمئنان.

ثمة رجال يمشون بتؤدة، يرتدون «البرنوس»[1] ويتفوّهون بكلمات غير مفهومة، يلهمونه الابتعاد والحذر، يحدث أن يلتقي معهم دون أن يعرفهم.

في أحد الأيام، وبعد أن بدأت تتضاءل فرص الحصول على منصب عمل في مدينة الجزائر، عرض عليه رئيس «الإنديجينا[2] في تخوم الصحراء أشغالاً كبرى لإنجاز «برجه».المزايا كانت مغرية، إذ لم يلبث أن أبدى «روبيرتو» موافقته بعد تردُّد طويل. فكرة الذهاب في أغوار الصحراء، وأن يعيش أشهراً مع العرب كانت تثير في نفسه الذعر.

ثم ذهب مفعماً بالقلق، بعد ساعات شاقّة من السفر الطويل،

1- لباس جزائري واسع الانتشار في الصحراء.

2- تعني السكان الأصليين في البلدان المستعمرة، خاصّة.

قضاها داخل عربة جياد ريثما وصل إلى «المسيلة».

كان الفصل صيفاً، اجتاحته حرارة غريبة، خُيِّل إليه أنها تصعد من باطن الأرض، وأريج كان يملأ الفضاء، لم يستطع تحديد كنهه. شعر «فروجي» بصنف من القلق فريد: أن يعيش هنا ليلاً، وسط هذا الحيز الشاسع من المكان الذي تنيره الأضواء الشاحبة للنجوم، هناك، بعيداً في الريف، كانت حشرات الزيز تطلق أصواتاً ضخمة ملأت أجواء الصمت المعكَّر قليلاً، في المدينة، بالنقيق الغريب للضفادع، في «الساقيات»[1] الدافئة.

الظلال الوارفة للنخيل الغضَّ، توشَّحت بالسواد في أفق مخضرّ.

في اليوم التالي، ومع الشعاع الوردي للفجر، تقدَّم نحوه شخص بدويّ أسمر، بعينين لهما لون الظل، أيقظه من نومه في غرفته الصغيرة بالفندق.

ـ تعال معي...أنا خادم «القايد»[2].

في الخارج، كان النسيم عليلاً، عطرٌ عذب يصعد من الأرض النديّة، والصمت قد أطبق على المدينة الغارقة في سباتها العميق.

امتطى «فروجي» بغلاً، وهو يقتفي آثار«البدوي»[3] الذي كان على متن حصان صغير رمادي اللون، بوَبَرٍ منفوش وطويل، يقفز

1- مفردها: ساقية، وقد وردت في النص، بالعربية.

2- تعني القائد، وقد وردت، في النص، بالعربية.

3- وردت، في النص، بالعربية.

فرحاً مع كل خطوة يخطوها.

اجتازا «الوادي» في مجراه العميق، طلع النهار، وقد لاحت بيوت من «الطوب»[1] وكذلك «القبة»[2] الصحراوية ذات الأشكال الغريبة. قطعا الحدائق العربية الغناء بـ«قرفالة»، وبلغا السهل الوردي الممتدّ، الفارغ، اللامتناهي كلّه.

بعيداً جدّاً، صوب الجنوب، بدت جبال «أولاد نايـل» شفّافة، بلونها المائل قليلاً إلى الزرقة.

ـ السهل هنا يدعى «الحضنة». وهناك أسفل الجبل «بوسعادة». قال البدوي.

بعيداً جدّاً، في السهل، في عمق منخفض أرضي مالح، لاحت مجموعة من الأكواخ الباهتة اللون، وقد تجمّعت حوالي «قبّة» فظّة، مرتفعة وضيِّقة.

في الأسفل، وعلى أرض حجرية منتفخة، ينتصب «برج القايد» على شكل قلعة صغيرة مربّعة، بأسوار متصدِّعة، تَمَّ تبييضها قديماً بالجير. ثمة أشجار تين مهملة، تنمو على منخفض أرضي حول عين ماء فاتر، يصبّ ماؤها المالح في «الساقية»، حيث يتجمّع ملح محمرّ، وملح البارود الأبيض، ضمن ركام متغيِّر.

1- وردت في النص، بالعربية.

2- الملاحظة السابقة.

تحصَّلَ البنَّاء على غرفة صغيرة فارغة، بيضاء كلّها، ومن الأثاث تحصَّلَ على حصير، وصندوق، من الجلد، معلَّقة على جدار الغرفة بمسمار.

هنا، عاش «فروجي» ما يقرب ستّة أشهر، بعيداً عن أيّ اتّصال أوروبي معيّن، عاش بين أحضان «أولاد مدبي» السمر، ذوي الوجوه والأعين الصقر. كانوا يضعون على رؤوسهم «قندورة» [1] عالية ذات خيط رقيق أسود.

«صدّيق»، الغلام الذي رافق «فروجي»، كان رئيس فريق من العمّال اليدويين الذين يتولّون مساعدة البنّاء، رافقهم في أشغالهم البطيئة وأغانيهم الطويلة الكئيبة.

عمَّت السكينة الكاملة أرجاء «البرج» الوحيد، أو تكاد، لولا أصوات ركض حصان، خرير مياه الآبار، الصوت الأجشّ والخشن للإبل، وهي تحاول أن تجثو أمام الباب الخارجي.

مساءً، عند غروب الشمس، وعندما يهدأ كل شيء، كانوا يؤدّون صلاتهم في الأعلى، ترافقهم حركات كبرى وابتهالات احتفالية، وعندما ينسحب «القايد»، يجلس «الخماسة» [2] والخدم القرفصاء على الأرض، يتحدثون فيما بينهم أو يغنّون،

1- وردت الكلمة، في النص، بالعربية.

2- وردت، في النص، بالعربية.

في حين ينساب صوت «جواق» [1] في كآبة مجهولة.

في «البرج» كانوا لطفاء وطيبين مع «فروجي»، ومقتنعين خاصّة. شيئاً فشيئاً، ومع الرتابة العذبة للأشياء، توقَّفت لديه الرغبة في العودة إلى بلده، بدأ يعتاد على النمط البطيء للحياة، دون هَمّ أو تسرُّع، ومنذ أن بدا يفهم العربية، اكتشف أن الأهالي بسطاء واجتماعيين، وهكذا أحسّ بالسعادة بينهم.

حاول، الآن، أن يجتمع معهم في الربوة مساءً، وبدا يسائلهم، ويروي لهم حكايات من بلده. منذ هذا اللقاء الأول، لم تكن لـ«فروجي» الرغبة في التميُّز عنهم، بدأ يسألهم عن دينهم الذي بدا له أكثر بساطة وأكثر إنسانية عمّا لقَّنوه إيّاه في تعليمه، حيث كسرت الألغاز رأسه، كما قال.

حَلَّ فصل الشتاء، ولأن أشغال البناء أشرفت على الانتهاء، وحان- من ثمّ- موعد السفر، أحسّ «فروجي» بالقلق، والحسرة العميقة.

«الخمّاسة» والعمّال أبدوا، بدورهم، تأسُّفاً لذهابه، ذلك أن «الرومي»[2] لم يكن لديه أيّ نوع من التعالي عليهم، ولا يحمل أيّ حقد ضدّهم، أو ضغينة، كان «وليد باب الله»[3]، ورجلاً طيباً.

1- ناي جزائري، مع الملاحظة السابقة نفسها..

2- كلمة كان يطلقها الأهالي على الأوروبيين، بشكل عام.

3- وردت، في النص، بالعربية.

في مساء يوم شتائي، وبينما كان «فروجي» والعمّال جنباً إلى جنب، حول جذوة نار، يسترقون السمع لـ«مدّاح» كفيف ومغنٍّ وَرِع جاء من «أولاد نايل»، قال «صدّيق» للبنّاء:

لماذا تغادرنا...؟ «القايد» يحترمك ويقدِّرك، لديك القليل من المال، استأجر منزل «عبد القادر بن محمود» الرجل الذي ذهب إلى «مكة»، هناك شجيرات من التين، وحقل، كما أن أفراد القبيلة يهمّون ببناء مسجد، ويستعدون لبناء «قبّة سيدي برابير». بفضل الأشغال هذه يمكنك كسب قوتك، وكلّ شيء يعود كالسابق.

و«حتى يصبح كل شيء كالسابق» وافق «فروجي».

في فصل الربيع، وعندما بلغهم نبأ وفاة «عبد القادر» في «جدّة» اشترى «فروجي» مسكنه المتواضع، دون التفكير في أنها نهاية لأحلامه الماضية، عقد أزلي أمضاه مع الأرض القاسية والمشعّة التي لم تعد تثير في نفسه الفزع.

استسلم «فروجي» لمنطق الأشياء، حتى أنه لم يعد يسافر إلى «المسيلة»، ومكث في «عين مندية»، لا يغادرها، وقد منحه «صدّيق» الذي بات صديقاً له لباساً عربياً، بعد أن أصبحت ملابسه الأوروبية بالية.

إنه يتحدّث العربية الآن، ويعرف ـ أيضاً ـ أهازيج شعبية

يردِّدونها في أثناء تأديتهم لأعمالهم، في حركات بطيئة، شيئاً فشيئاً.

في أحد الأيام وهو يتحدّث إليهم، ورد ذكره للشهادة، خارج اعتقاده الديني، وسرعان ما صاح «صدّيق» فرحاً:

ـ يا «روبير»، لماذا لا تعتنق الإسلام؟ نحن الآن أصدقاء، وسنصبح أخوة. سأزوِّجك أختي، لنعيش معاً نسبّح بحمد الله.

خيَّم الصمت المطبق على «فروجي»، لم يستطع ترجمة مشاعره، ولكنه أحسَّ في قرارة نفسه، أنه أصبح مسلماً مادام يعتقد أن الإسلام أفضل من عقيدة آبائه... وبقي حالماً.

مضت أيام بعد ذلك، وأمام «صدّيق» والشيوخ، أعلن «فروجي»، بعفوية، الشهادة بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

سَبَّحَ الشيوخ حمداً لله، وعانقه «صدّيق» متأثّراً.

«روبيرتو فروجي» أصبح يدعى «محمد قصد الله».

«فاطمة الزهراء» شقيقة «صديق» أصبحت زوجة «المتورني»، ودون بهرج ديني. وببساطة، أخذ «محمد قصد الله» يمارس شعائره الدينية، من صلاة وصوم.

«روبيرتو فروجي» لم يعد، إطلاقاً، إلى «سانتا ريبارتا دي

نافار»[1]، حيث كانوا يترقَّبون عودته، ولكن، دون جدوى...

ثلاثون سنة مضت بعد ذلك، أصبح «محمد قصد الله» شيخاً طاعنا في السنّ، وَرِعاً، طيّباً، يؤمن بالقضاء والقدر؛ فقد كتب الله له أن الحلم الذي راوده بشراء حقل ومنزل بـ«سانتا ريبارتا» يوماً، سيعثر عليه تحت سماء أخرى، وفوق أرض أخرى، في الـ«حضنة» المسلمة، ورتابة أفقها الشاسع.

1- مدينة إيطالية.

نوّار اللوز

«بوسعادة»، الملكة الشقراء، المحروسة بالتلال البنفسجية، كانت ترتدي حدائق معتمة، وتنام، بعشق، على الحافّة المنحدرة «الوادي»[1]، حيث ينساب الماء على الحجارة البيضاء والوردية، بانحناء، كتقاعس حلم على الجدران الترابية الصغيرة. كانت أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء بفعل مداعبة الريح لها، عطرها الفوّاح كان يحلِّق في الفتور الرخو للجوّ، مُحدثاً كآبة رائعة.

إنه الربيع، وتحت مظاهر الارتخاء والتأثير على الأشياء، كانت الحياة تحضن، وبعنف، ملأى بالحبّ والأشواق، ماء النبات

1- وردت، في النص، بالعربية.

القويّ الذي كان يصعد من الأحواض الغريبة للأرض، ليتفتَّح قريباً، في انتشاء متجدِّد.

صمت مدن الجنوب يخيِّم على «بوسعادة»، المتردِّدون على المدينة العربية قلائل، فيما كانت تتجوَّل، في الوادي، كوكبة من النساء والفتيات، وهنّ يرتدين فساتين زاهية، و«ملاحف»[1]: واحدة، وأخرى خضراء زمرّدية، وأخرىورديّة ناصعة، صفراء بلون الليمون، رمّانية، زرقاء سماوية، برتقالية، بيضاء أو حمراء مطرزة بالأزهار والنجوم المختلفة الألوان. رؤوسهن مغطّاة ببناء ثقيل من الحلاقة الصحراوية، يتشكّل من ضفائر، من أياد ذهبية أو فضية، سلاسل صغيرة، مرايا صغيرة وتمائم، متوَّجة بأكاليل مزخرفة بالريش الأسود. كُنَّ يشكّلن أفواجاً في تجمُّعهن أو تفرُّقهن كقوس قزح متحرِّك، مثل أسراب الفراشات الزاهية.

وها هي ـ أيضاً ـ مجموعات من الرجال، يرتدون ثياباً بيضاء تغطّي رؤوسهم، وجوههم سمراء وقورة، يجتازون، في صمت، الأزقّة الصلصالية.

منذ سنوات خلت، وأمام كوخ من الطين المجفَّف، كانت تجلس، من الصباح إلى المساء، امرأتان طاعنتان في السنّ، ترتدي كلّ منهما «ملحفة» داكنة الاحمرار، حيث الصوف

1- لباس نسائي، وقد وردت في النص، بالعربية.

السميك يشكّل مطويّات ثقيلة حول جسديهما المومیائیّين، حلاقة شعريهما بحسب أعراف البلد: ضفائر من الصوف الأحمر، وضفائر من الشعر الرمادي المطلي بالحنّاء ذي اللون البرتقالي اللامع، تحملان حليقات ثقيلة في آذانهنّ المرهَقة، وعليهما سلاسل صغيرة من الفضّة مشدودة إلى مناديل من حرير للحلاقة، ثمّة قلادات بقطع من الذهب والطين العطري الصلب وصفائح سميكة من الفضة المنحوتة تغطّي صدريهما المنهارين، جميع هذه الطواقم والأَسْوِرة ذات المسامير المتَّصلة بأقدامهما ومعاصمهما العظمية تُحدِث أصواتاً كالرنين، عند أدنى حركة من حركاتهما النادرة والبطيئة.

كانتا كما الأصنام القديمة المنسيّة، تشاهدان، من خلف الدخان الأزرق المتصاعد من سيجارتيهما، مرور الرجال الذين لم يعودوا يولونهما أيّ اهتمام، الفرسان، مواكب الأعراس، قوافل الجمال أو البغال، الشيوخ الذين انتهت صلاحيّاتهم، والذين كانوا، في يوم ما، عشّاقهما.

العيون الباهتة وقد كبرت رغماً عنهما بـ«الكحل»[1]، الوجنات المزيَّنة رغم التجاعيد، الشفاه المحمرّة، كل هذا المظهر كان يلقي بظلّه المنكوب على الوجهين الهزيلين، والفمَيْن الخاليَيْن

1- وردت في النص، بالعربية.

من الأسنان.

عندما كانتا شابّتين: «سعدية» بوجهها الرقيق، المعقوف والأسمر، و«حبيبة» البيضاء، النحيفة، كانتا تجدان هوًى في نفوس الـ«بوسعاديين» والبدو.

أصبحتا تنعمان، الآن، بالثراء الخليط بشيء من جشع الماضي، كانتا تتأمّلان، في سِلْم، الديكور المتلألئ للمدينة الكبيرة، عندما يلتقي «التلّ»[1] مع «الصحراء»[2]، التي تأتيها أعراق إفريقيا... كانتا تبتسمان للحياة التي تمضي مستمرّة، لا تتوّقف بدونهما، أو بذكرياتهما. من يدري؟

في الساعات التي ينادي فيها «المؤذِّن» المؤمنين للصلاة، بامتداد صوته الطويل والشجيّ، تنهض الصديقتان، وتبدأان الصلاة على حصير، ترافقهما القعقعة التي يحدثها خلخاليهما، وسرعان ما تعودان، كلّ واحدة إلى مكانها وحلمها، وكأنهما تنتظران شخصاً لا يأتي.

لم تكونا تتبادلان الكلام فيما بينهما إلا نادراً.

ـ انظري يا «سعدية» هناك، «سي شعلال» «القاضي»، أتذكرين يوم كان عشيقي؟ كم كان فارساً أنيقاً! وكيف كان،

1- الملاحظة السابقة.

2- الملاحظة السابقة.

بمهارة، يعتني بفرسه الأسود! وكم كان سخيّاً! الآن أصبح شيخاً مسنّاً، يلزمه خادمان حتى يصعد على فرسه الرزين، هو كذلك.

غير أنها لم تتجرّأ على التحديق صوبه.

ـ نعم، و«سي علي» الملازم الأوّل، الذي كان في صفوف «السباهي»، جاء مع «سي شعلال»، لكم كنت مخلصة في حبّه؟ ألا تذكرين؟ هوـ أيضاًـ كان فارساً شجاعاً وشابّاً وسيماً، كم بكيت عندما انتقل إلى «المدية»! هو كان يضحك، كان سعيداً، لقد عُيِّن رئيس فرقة، ولكنه نسيني، هكذا هم الرجال، توفِّي العام الماضي، رحمه الله!

أحياناً كانتا تشدوان بأغانٍ عاطفية، تنساب، بغرابة، من حنجرتيهما، بصوت مرتعش، يوشك على الاختفاء.

وهكذا، كانتا تعيشان في عدم اكتراث، بين أشباح الأيام الخوالي، تترقّب كلٌّ منهما دنوّ ساعتها.

كانت الشمس الحمراء تصعد، بمهل، خلف الجبال الملفَّعة بالسحاب الخفيف، وميض شديد الحمرة مَرّ أمام هذه الأشياء، تماماً مثل حجاب الحياء، كانت الأشعة الطالعة تزرع ريشاً من نار نحو قمّة النخيل والقبب الفضّية للمرابطين، وتبدو كأنها من الذهب الخالص. خلال لحظة، كانت كل المدينة القديمة الشقراء تشتعل بالنيران، وكأنها تحترق بلهيب داخلي، فيما القسم الأسفل

من الحدائق ومجرى الوادي، والأزقّة الضيّقة، بقيت في الظل، معتمة، كأنها ممتلئة بالدخان الأزرق الذي يخلط الأشكال، فاتحةً أقاصي اللغز بين الجدران الصغيرة المنخفضة والجذوع المقطّعة لأشجار النخيل.

على حافة النهر، كان وميض النهار يشعّ لوناً وردياً، الدموع المتناثرة وقد تجمَّدت، براءة الثلج، أشجار لوز حالمة أمام مسكن الصديقتين العجوزين، كانت الريح المنعشة قد انتهت من توزيع رماد المنزل المنطفئ الذي كان يشكّل زوبعات صغيرة زرقاء.

لم تكن «سعدية» و«حبيبة» في مكانهما المعتاد.

في الداخل، تناهى صوت صراخ حادّ أحياناً، وخافت أحياناً أخرى، حول الحصير الذي كانت تنام عليه «حبيبة»، الذي كان يشبه رزمة من القماش الأحمر بلا شكل محدَّد. كانت سعدية وعشيقات أخريات في الزمن الذي مضى، تنتحبن باكيات، تمزِّقن وجوههن بضربات أظفارهن القويّة، وقد كان رنين المجوهرات يرافق، في إيقاع، صياح الباكيات.

في الفجر، ماتت «حبيبة» دون احتضار، هرمة، منهوكة الجسم، ماتت ببطء، بعد أن تحطّم، رويداً رويداً، حافزها على الحياة.

قاموا بغسل الجسم بماء كثيف، لُفَّ بكفن أبيض، ورُشَّ بالطيب، ثم مُدِّد وجهة الشرق، حوالي منتصف النهار قَدِمَ رجال

حاملين نعش «حبيبة» إلى إحدى المقابر التي لا سياج لها، حيث تهبّ، بحرّيّة، الزوابع الرملية للصحراء، بأمواجها الأزلية، في مواجهة الأحجار الرمادية الصغيرة التي لا تُعَدّ.

انتهى كل شيء... بقيت «سعدية» وحيدة، وقد عادت لتقبع في مكانها مع الدخان الأزرق لسيجارتها الأبدية، تنهي القليل مما تبقّى لها من الحياة، بينما على ضفَّتَي الوادي المشمس، وفي ظل الحدائق، أنهت أشجار اللوز بكاءها، وهي تذرف دموعها البيضاء، بابتسامة يغلِّفها حزن ربيعي.

المنافسة

ذات صباح، توقّفت الأمطار الكئيبة عن الهطول، وارتفعت الشمس نحو السماء الصافية، وقد غسلت بزرقة عميقة الأبخرة الباهتة للشتاء.

ثمّة، في الحديقة السرية، شجرة «جيدي» الضخمة، وقد نشرت أغصانها المكسوّة بالأزهار ذات اللون الوردي.

صوب اليمين، كان يمتدّ المنحنى المتلذِّذ لتلال «مصطفى»، ويبتعد إلى شفافيات لا متناهية.

كانت هناك شذرات من الذهب على الواجهات البيضاء للفيلات.

من بعيد، كانت تتراءى الزوارق النابولية، وقد بسطت أجنحتها الباهتة على الخليج الهادىء. مرّت هبوب مداعبة في جوّ فاتر، كانت الأشياء تثير فرائصه، وقد بدأ يستيقظ في قلب المتسكّع أمل الانتظار والاستقرار ليعيش سعيداً.

اختفى مع التي يحبّها في البيت الصغير اللَّبَني، حيث تمضي الساعات فاقدةً إحساسها، وقد فترت، بعذوبة، همّته خلف مشربية من الخشب المنحوت وستائر ذات لون ذابل.

لاح أمامه الديكور الكبير لمدينة الجزائر، يدفعه إلى شيء من الاحتضار الهادىء.

لماذا يذهب؟ لماذا يبحث هناك عن السعادة مادام المتشرِّد يجدها هنا، غير معبرة، في عمق الحدقتين المتغيِّرتين للمحبوبة، حيث يغطس نظراته، طويلاً، طويلاً، إلى أن يسحق قلقُ اللذة الكبير كيانَهما.

لماذا يبحث عن الفضاء، عندما تتفتّح عزلتهما الضيّقة على الأفق الشاسع، عندما يشعران أن الكون مختصر فيهما؟

انفصل عن المتشرِّد كلّ ما لم يكن له حبّاً، وتراجع القهقرى نحو الأمواج البعيدة.

تراجع عن حلم الوحدة الأبيّة، تنكَّر لسعادة مساكن الحظّ والطريق الصديقة. الخليلة الجائرة، الثملة من الشمس، والتي

احتضنها، وهامَ بها.

ترك المتشرِّد قلبه المحترق ينساب لساعات ولأيام في نسق السعادة التي كانت تبدو له أزليّة.

بدت له الحياة والأشياء جميلة. لقد أصبح، فيما يعتقد، أفضل مما كان، ذلك أن سموّ القوة الكامنة داخل جسمه المحطّم، وطاقة كبرياء رغبته الوهنة، جعلتاه ودوداً.

قديماً، أيام المنفى، في ضجر الحياة الحضرية للمدينة، كان قلب المتسكّع مشدوداً، بألم، إلى ذكريات الشمس الساحرة الممتدّة على بساط السهل الحرّ.

الآن، وهو مستلقٍ على سرير دافئ، على شعاع شمس تخترق النافذة المفتوحة، يمكنه أن يهمس، في أذن الحبيبة، رؤى بلد الأحلام، مع الكآبة الوحيدة العذبة التي تشبه عبق الأشياء الميّتة.

لم يكن المتشرِّد نادماً على شيء، لم يكن يرغب سوى في الدوام الأبدي لما هو كائن.

أرخى الليل الحارّ سدوله على الحدائق، وقد عَمَّ الصمت الجميع، حيث يرتفع نَفَسٌ ضخم واحد، نفس البحر الذي ينام، في الأسفل، تحت النجوم، نَفَس الأرض، بحرارة الحبّ.

خرج المتشرِّد وحبيبته إلى طريق لا يمرّ بها أحد، يشدّ أحدهما يد الآخر، ويبتسمان في الليل.

لم يكونا يتكلّمان، لأنهما متفاهمان في صمت.

على مهل، صعدا معاً منحدرات «الساحل»[1]، بينما بزغ القمر المتأخِّر من شجر الكاليبتوس على التموُّجات المنخفضة لـ«المتيجة».

جلسا على صخرة.

ثمّة وميض أزرق ينساب على ظلام الريف، وطيور البلشون الفضية كانت ترتعد فرائصها على الأغصان المبلَّلة.

تأمَّلَ المتشرِّد الطريق مليّاً، الطريق العريض والأبيض الذي يأخذ اتِّجاهاً بعيداً.

ذاك هو طريق الجنوب.

في عمق روحه المستيقظة فجأة، تراءى له عالم من الذكريات، أغمض عينيه ليقتنص رؤاه، أمسك بقبضة يديه يَدَيْ حبيبته، متشنّجاً.

ولكن، رغماً عنه أعاد فتح عينيه.

ثملاً من الشمس، استعاد رغبته القديمة في الخليلة المتسلِّطة.

من جديد، كان لها بجميع انفعالات كيانه.

ناهضاً للمرّة الأخيرة، تأمّل الطريق مليّاً: لقد عاهدها.

دلفا إلى الظلّ الحَيّ لحديقتيهما، وسرعان ما ناما، بصمت،

1- وردت في النص، بالعربية.

تحت نبات الكافور الكبير. فوق رأسيهما نشرت شجرة «جيدي» أغصانها المكسوّة بالأزهار الوردية، والتي تبدو في زرقة الليل بلون البنفسج.

رمق المتشرِّد حبيبته وهي بجواره؛ لم تكن سوى رؤية مهلهلة، رخوة، سوف تتبـدَّد على ضوء القمر.

مبهمة كانت صورة الحبيبة، لا تكاد تتميَّز، بعيدة جداً ولأن المتشرِّد كان يحبّها دائماً، فقد فَكَّـر أنه يجب عليه الذهاب فجراً، وانقبض قلبه.

أمسك واحدة من الورود العطرة من لبِّ الكافور، قام بتقبيلها، ثم أجهش بالبكاء.

هوت الشمس الحمراء الكئيبة على محيط من الدم، خلف خطّ الأفق الأسود. انقضى النهار بسرعة، وقد غرقت صحراء الحجارة في الشفافيات الباردة، لاحت في زاوية ما من السهل بعض النيران المشتعلة.

ثمّة بدو مسلّحون بالبنادق، يلوِّحون بستائر بيضاء كبيرة حول جذوة من النار.

تناهى إلى سمعه صهيل حصان مشكول.

هناك، على الأرض يجلس رجل القرفصاء وقد تدلّى رأسه، بعينين مغمضتين، كما الحلم يشدو بأغنية شعبية قديمة، تتناوب

فيها كلمتا الحبّ والموت.

ثم توقَّف كلّ شيء في صمت رهيب.

خمدت النار، أو تكاد. كان المتشرِّد نائماً ملتفّاً بـ«برنوسه» وقد أسند رأسه على ذراعه، منهك الجسد، استسلم للعذوبة المطلقة في أن ينام وحيداً، مجهولاً لدى الرجال البسطاء، الأفظاظ، في مستوى هذه الأرض، الأرض الجميلة المهدهدة، في بقعة ما من صحراء، لا اسم لها، والتي لن يعود إليها أبداً.

مجــرم

في المنخفض الرطب المحاط بجبال عارية وصخور حمراء، تَمَّ بناء مركز «روبيس بيار»، جرى اقتطاع الأراضي المستعمرة التابعة لأولاد «بوناقة»: حقول كثيرة الحجارة وصهباء وفقيرة على كلٍّ، غير أن المدراء والمفتّشين وبعض الموظّفين في الجزائر(العاصمة)، المكلَّفين بـ«تعمير» الجزائر واستلام الرواتب الرسمية التي لم تأتِ أبداً!.

تراكمت، خلال شهر، الأوراق الإدارية، أوراق باهظة الثمن وعديمة الجدوى لمحاولة منح ما يشبه الشرعية التي ما هي، في الواقع، سوى حطام لقبيلة كبرى ومؤسَّسة محتمَلة لمستعمرِين

قادمين مستقبلاً.

ومن يهمّ الأمر إذاً؟ لا القبيلة، لا المعمّرين، لا أحد يهمّه الأمر في مكاتب الجزائر...

على المنحدر الغربي للجبل كانت قبيلة «بوعاشور» تملك، منذ زمن سحيق، أفضل أراضي المنطقة، كانوا يعيشون فوق هذه الأراضي متَّحدين، دون اللجوء إلى أي تقسيم لها.

ها قد حانت عملية نزع الملكية، حيث تَمَّ اللجوء إلى تحقيق طويل وغامض حول الحقوق الشرعية لكلّ فلاح، في الأرض التي يشغلها. ولتحقيق ذلك تَمَّ التنقيب عن العقود الصفراء مقطوعة الزوايا، لقضاة الزمن القديم، وعن علاقات القرابة بين قبائل «بوعاشور».

بعد ذلك، واستناداً إلى هذه الاكتشافات، يتمّ توزيع التعويضات. وهنا، كذلك، أينعت المهزلةُ البيروقراطية المحزنة ثمارَها المرّة.

كانت شمس الخريف الخافية تداعب، بذهبها الأصفر، المنشآت الإدارية القبيحة والخَرِبة، تحيط بها بيوت من بقايا موادّ البناء، متداعية، فيما ينمو العشب على القرميد الباهت المبلَّل.

أمام المكاتب الإدارية تكدَّست قبيلة أولاد «بوناقة»، وهم يجلسون القرفصاء، يتلفّعون على نمط واحد، بـ«برانيسهم» الترابية اللون، يترقَّبون، في خضوع واستسلام.

توجد، هنا، جميع أصناف النمط التلّي: المظهر البربري ذو السحنة الرهيفة، وعيون الطرائد الشقراء، وجوه محقونة بالدم الأسود، مهدَّلة وجرداء، وجوه عربية، معقوفة وحازمة.

كانت الأحجبة الملفوفة بأشرطة صهباء، والألبسة الفضفاضة، تحاكي تحرّكاتهم وأوضاعهم التي تطبع الأفارقة بشيء من البدائية، ولولا المباني «الأوروبية» البشعة أمامهم لَنُسِبَ المشهد إلى عهد تليد.

«محمد عاشوري»، الشيخ المسنّ ذو الوجه الشاحب والقسمات الصارمة والعينين القلقتين، كان يترقَّب الهامش قليلاً، يفرك بإصبعيه الهزيلتين الحبّات الصفراء لمسبحته، ضاع نظره في الأفق البعيد، حيث يطفو مسحوق من الذهب الباهت.

كان الفلّاحون المهمومون تحت مظهرهم المنقبض والمذعن، لا يتكلَّمون إلا نادراً.

كانوا سيدفعون لهم ثمن أراضيهم، ويبرِّرون المزايا من وراء ذلك قبل طردهم نهائياً، يغرون عيونهم العطشى، عيونهم الفقيرة والبسيطة.

وبدأ القلق يدبّ في نفوسهم، فقد دام الانتظار طويلاً... لقد تَمَّ استدعاؤهم يوم الثلاثاء، وها هم، الآن، في صباح يوم الجمعة، ولم يحصلوا، بعد، على أيّ شيء.

يأتون إلى هنا صباح كل يوم، ينتظرون في صبر، ثم يتفرّقون مجموعات نحو المقاهي الموريسكية، يتناول واحدهم قطعة خبز سوداء يجلبها من الدوّار، ثم يشرب فنجاناً من القهوة بقرش واحد، ثم، بعد ساعة من الزمن، يعودون إلى الجلوس على طول الجدار، ينتظرون... يغادرون بعد المغرب حزينين خائري العزيمة، يقولون، همساً، عبارات الخضوع. التموُّج الذهبي لأشعة الشمس الغاربة كانت تُبرز أسماءهم، وتُظهر معاناتهم البطيئة.

في نهاية المطاف، الكثير منهم لم يكن لهم خبز أو مال، للمكوث في المدينة، حاول البعض منهم النوم جنب الجدار ملتحِفاً خرقه البالية.

أمام المكاتب الإدارية، مجموعة من الرجال، كانوا يتحدّثون فيما بينهم، ويضحكون. ثمّة فرسان، وحرس يتباهون ببرانيسهم الزرقاء الكبيرة، يتحدّثون عن مغامراتهم النسوية، ويتحدّثون حتى عن الخمر.

أحياناً، كان يتقرَّب منهم، خجولاً، أحد الفلاحين، للاستشارة، ثم- وبإشارة مراوغة من اليد، معروفة لدى المسلمين- يجيبه «المخازنية» و«الشنابيط»، والذين لم يكونوا يعرفون شيئاً هم كذلك:

- «اصبر».

يطأطئ الفلاح رأسه، ثم يعود إلى مكانه متمتماً: لا حول ولا قوة الا بالله !

أطرق «محمد عاشوري» مفكِّراً، تساوره الآن شكوك، يتأسَّف لأنه تنازل عن أرضه، قلب الفلاح فيه يتفطّر لمجرَّد التفكير في أنه لا يملك أرضاً.

وماذا عن المال؟ في البداية، كم سيعطونه؟ ثم ماذا سيفعل به؟ أين يمكنه شراء حقل آخر، بعد أن با ع أرض أجداده؟

أخيراً، وفي حوالي التاسعة، يتقدَّم قائد أولاد «بوناقة»، وهو شابّ أسمر، ذو نظرة حادة وصارمة، لإجراء عملية المناداة لأعضاء قبيلته، واقفاً على عتبة المكتب، والورقة بين يديه.

نهض الفلّاحون مع تموُج «برانيسهم» الفضفاضة.حاولوا تحيّة قائدهم، البعض يقبِّل عمامته، والبعض الآخر يقبِّل كتفه، غير أنه كان يزيحهم بإيماءة منه، ثم يشرع حارسه، وهو شيخ أشيب، في المناداة. كان يدفع، من اليمين، أولئك الذين ردّوا على النداء بأسمائهم، سواء بكلمة «نعم» التقليدية، أو بعبارة «أنا هو»، وتجرَّأ البعض منهم على الردّ بالكلمة العسكرية: «بريزون»؛ أي (حاضر).

توجَّه بهم القائد، بعد ذلك، إلى المكاتب الإدارية التي تحمل العنوان الشامل:

«الأملاك»، (إيرادات، ضرائب، أملاك إلخ...)

دخل «القائد» وأعطاه مقعداً للجلوس.

على العتبة، نادى «فارس» على «أولاد بوناقة»، وبدأ يُدخلهم إلى المكتب، واحداً واحداً.

من بين الذين دخلوا متأخِّرين «محمد عاشوري».

أمام مكتب أسود، كان يجلس موظّف أوروبي ببذلة رثة مشرَّطاً بمدية، وبجانبه «الخوجة»، وهو شاب قصير البصر يحمل نظّارة أنفية، يترجم واقفاً.

ـ «عاشوري محمد بن حمزة».. أنت الحفيد الأصغر لابن عمّ «أحمد الجيلالي بن الجيلالي» والذي كان يملك أرضاً للمكان المسمّى «أولاد نوار»، وهي فرقة من قبيلة «بوعاشور»، لك ـ إذاً ـ الحقوق الشرعية للحقول المسمّاة «زبوجة» و«نفرة»... تَمَّتْ جميع الحسابات، تَمّ تسديد جميع المصاريف. لقد تقاضيت ـ كتعويض عن البيع ـ مبلغ أحد عشر سنتيماً ونصفاً، ولأنه لا توجد عندنا سنتيمات، خذ هذه.

ثم وضع الموظّف قرشين في يد الفلاح الممدودة.

بقي «محمد عاشوري» بلا حراك، ينتظر دائماً.

ـ هيا، «روح»، «بلاك».

ـ ولكني بعت أرضي: محراثاً ونصفاً من الحقل، وعدّة

هكتارات من الغابة... أعطوني مالي !

ـ ولكنك استلمته... هذا ما عندك! هيا اذهب. الآن دور «عبد الله بن طيب جلولي»!

ـ ولكن هذا ليس دفعاً! قرشان اثنان؟ يا ربّ، اشهد.

ـ باسم الله يا غبي! «بلاك» «فيسا ع».

دفع الفارس بالفلّاح خارجاً. في الشارع أحنى الفلّاح رأسه، مدركاً أن النقاش لم يعد مجدياً.

مكث أولاد «بوناقة» هنا محتشدين، وكأن بصيصاً من الأمل بقي لهم في قسوة الأيام، نظراتهم كانت مذعورة وحزينة، بغباء، مثل الغنم في المسلخ.

ـ علينا أن نقدِّم شكوى للحاكم العام، اقترح «محمد عاشوري».

وهكذا، توجَّه قسم قليل منهم نحو المكاتب البلدية المختلطة وسط المدينة.

الحاكم العام، وهو رجل شهم، أومأ بيديه وقال:

ليس بمقدوري فعل أي شيء، قلت لهم ذلك في الجزائر(العاصمة). إنه الخراب بالنسبة للقبيلة، لم يستمعوا إلى نصائحي. إنهم يحكمون ونحن نطيع. لا يمكن فعل شيء.

كان يبدو خجولاً، وهو يقول لهم ذلك، خجولاً من الأعمال

السيئة التي يجبرونه على فعلها. ولأنه الحاكم الذي لم يمسّهم أبداً بأيّ أذى، أخبرهم باستحالة فعل أي شيء، قبلوا، في صمت، خرابهم، وقفلوا عائدين نحو مسقطهم في «الوادي»، حيث باتوا، منذ الآن، مجرَّد فقراء.

كانوا عاجزين، عن الفهم ـ بشكل خاص؛ بدا لهم أن الأمر فيه ظلم، البعض من بينهم تحصَّلوا على مبالغ مهمّة نسبياً، بالرغم من أن مساحة أراضيهم أقلّ من الآخرين الذين لم يحصلوا إلا على سنتيمات، مثل «محمد عاشوري».

حاول أحد الفرسان، وهو ابن لفلّاح، أن يفسِّر لهم أسباب اللاعدل في معالجة وضعياتهم:

ـ ولكن، بمَ تهمّ القرابة مع أناس توفّوا، رحمهم الله؟ قال «عاشوري»: مادمنا نعيش مشتركين، كان من الأجدر منح أموال أكثر للذي يعمل في الأرض أكثر.

ـ وماذا تريد؟ إنهم «الحكام». إنهم يعرفون أكثر منا..الله أراد ذلك...

لم يجد «محمد عاشوري» ما يعيش به، وعندما نفد منتوج بيع مواشيه، عمل مستخدَماً في مزرعة السيد «غايار»، المعمّر الذي يملك الجزء الأكبر من أراضي «بوعاشور».

السيد «غايار» كان رجلاً شهماً، وإن كان قاسياً، ديناميكياً،

طيّباً ونزيهاً، في العمق.

لاحظ السلوك العدواني المتكتِّم لخادمه، كان الخدم الآخرون المنحدرون من القبيلة هم- أيضاً- عدوانيين، غير أن «محمد عاشوري» كان يُظهر نفوراً واثقاً، وكان أكثر صراحةً ضدّ الكولون، ولكن طيبة قلبه لم تسمح له بالردّ عليه.

في اليوم التالي للحصاد، ولأن قلوب الفلّاحين كانت تتفطّر، وهم يشاهدون كل هذه الخيرات التي أتت بها أراضيهم، وما كادت تتمّ عملية لَمّ الحصاد ووضعه في المستودع حتى أخذت النيران تلتهمها في ليلة جميلة، ولكنها مظلمة وحارّة.

تجمّعت أدلّة ملموسة ضدّ «عاشوري». أنكر الأمر، بهدوء وإصرار، كآخر مسوِّغ للدفاع، وتمّت إدانته.

عقله البليد كرجل بسيط، وقلبه كفقير عُرِّيَ وخُدِع باسم القانون، وهو ما لم يستطع فهمه، دفعه، في استحالة الوضع الذي كان فيه، إلى أن ينتقم من «البايلك»، وأن يكون لديه حقد وضعينة ضدّ الكولون، المغتصب: ربّما يكون هو الذي سخر من الفلاحين، ويكون هو الذي منح عاشوري القرشين الزهيدين كتعويض عن كل هذه المساحة من الأرض التي نُزِعت منه ! هو- على الأقل- كان في متناول «عاشوري» للانتقام منه.

و اقتُرِف الاعتداء، اعتداء استمرَّ «محمد عاشوري» يراه

إحقاق عدل، تساءل الكولون، في دهشة يخالطها الألم، عمّا فعله لهذا العربي الذي منحه منصب عمل، حتى يعرف منه هذا المستوى من الكراهية! لم يكن أحد يشكّ في أنهما أصبحا ضحيّتين مشتركين في هذا الظلم الضخم حزناً!

الكولون القريب والسهل البلوغ، قام بدفع مستحقّات الموظّفين البعيدين الذين يعيشون بهدوء، في قصور الجزائر (العاصمة)، والفلّاح المحطّم اعتُدِي عليه، ذلك أن الجريمة، أحياناً، خاصّة لدى المقهورين، هي الإشارة الأخيرة نحو الحرّيّة.



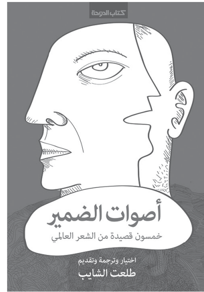
صدر في سلسلة كتاب الدوحة

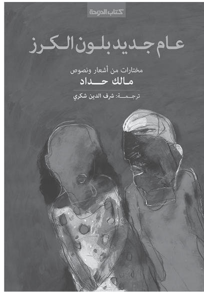
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أبديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي

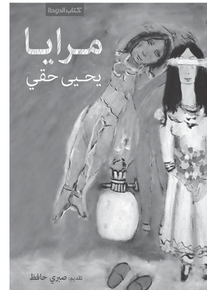
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير" - مختارات شعرية	
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحوُّلات الصفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت - ترجمة وتقديم: بوداود عمير

صدر في سلسلة كتاب **الدوحة**

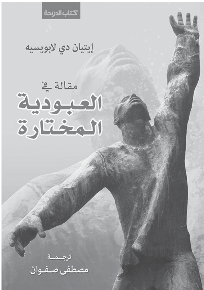


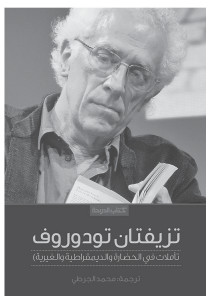
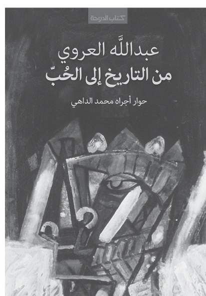
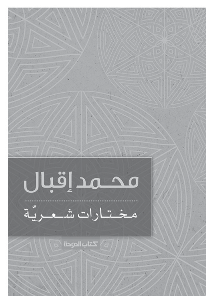











كتاب الدوحة
تزيفتان تودوروف
تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية)
ترجمة: محمد الجرطي

كتاب الدوحة
عبدالله العروي
من التاريخ إلى الحُبّ
حوار أجراه محمد الداهي

محمد إقبال
مختارات شعريّة
كتاب الدوحة

كتاب الدوحة
الإصبع الصغيرة
ميشال سار
ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي

كتاب الدوحة
حي بن يقظان
لابن طفيل
تقديم: د.حسن حنفي

كتاب الدوحة
فتاوى
كبار الكتّاب والأدباء
في
مستقبل اللغة العربية
نهضة الشرق العربي وموقفه
إزاء المدنيّة الغربيّة
توطئة: سعيد بنكراد